٢

سلسلة إحياء التراث العربي

جُبران خَلِيل جُبران

الأعمال الكامِلة

# عَرائِسُ المُروج

راجعهُ وَضبط مدخلهُ

إبراهيم صقر

دار العلم والمعرفة

مكتبة مصر

# عرائــس المــروج

سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران

# عرائس المروج

تقديم

كرم الدكروري

راجعه وضبط مدخله

أ/ إبراهيم محمد صقر

الناشر

دار العلم والمعرفة

| | |
|---|---|
| اسم الكتاب : | عرائس المروج |
| تأليف : | جبران خليل جبران |
| القطع : | ١٤ × ٢٠ |
| عدد الصفحات : | ٩٦ صفحة |
| سنة الطبع : | ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م (طبعة جديدة منقحة) |
| الناشر : | دار العلم والمعرفة |
| طباعة : | دار مصر للطباعة - القاهرة |

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٢١٤٣/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي: 3-1623-11-977



٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسني مبارك
زهراء مدينة نصر -القاهرة
ت : ٠١٢٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٠١١٢٣٣١٢٣٨
E-mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال: ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)




# تقديم

رفَض المطارنْة الاشتراكَ في مراسِمِ استقبَالِ جُثمان جُبران خليل جبران، في عام ١٩٣١م لُيدفنَ -بِنَاء علَى وَصيّته- في بلدة بشرّي شَمال لُبنان. بَعد نَقل جُثمانه عَبْر البحرِ، مِن أمريكَا، لأنّه «كَافرٌ وُمهرْطِق»، بِزَعم هُجُومه علَى الكهنة.

وقبلَها رَفَض كاهنُ الكنيسةِ المارُونيّةِ في نيويورك أنْ يُعطيَ تصريحًا لِكَاهِن الكَنيسةِ المارُونيّة في بوسطن بالصَّلاة على جُثمانِ جُبران لأنَّه -أي الكاهنُ- زَار جُبران في المُستشفى، «وعرفَ مِن الراهبةِ أنه رفضَ الاعترافَ بأنّه كَاثوليكيّ».

خشِيت فَرنسا التي كَانت تُسيطرُ عَلى مقَاليدِ لُبنَان أنْ يَضعَها رِجالُ الدينِ المَسيحيّ في حَرَج بَالغ أَمَامَ العَالم بعَدَم الصّلاة عَلى جُثمان الفَيلسوفِ والأَديبِ، والرسَّام الذي بَهَرَتْ كِتَاباتُه الغَربَ، واعتبرتْه جَريدةُ «النيُويورك هيرالد»:

«نَابِغة الملاَيينِ الذينَ يتكلَّمون العَربيَّة في الشَرق».

تدخّلَ سِكرتيرُ المطبُوعاتِ التَابعُ للمندوبِ الفَرنسيّ، بِمُساعدةِ

آخرينَ وشكّلوا وفْدًا وذَهبوا إلى مقرّ البَطريركِ المَارونيّ، إلياس الحُويك، لإقناعِه بِالعُدولِ عَن مُوقفِه، واستَعانَ أَحدُ المطَارنةِ بِكلماتٍ لجُبرانَ ليثبتَ بها صِحّة مَوقفِهم الرَّافِض له تقول:

«في لُبنان، ذلك الجبل الغنيّ بِنور الشمسِ، الفَقيرُ إلى نُور المعْرفَة، قد اتّحدَ الشَريفُ –يَقصِدُ الإقطاعيّ– والكَاهنُ على إِبادةِ الفَلّاح المسكين، الذي يَأكلُ خبزَه بِعرق جَبينهِ، كيما يَحمِي جَسدَه مِن سَيفِ الأَولِ، ويَحمِي روحَه مِن لعْنَة الثّانِي».

وتَابعَ المطَارنةُ: هَل يُعقلُ أن نُكرمَ ونستقبلَ مَن له هذا الرّأي في الكَهنة؟

فأجَابَ أحدُ أعْضَاءِ الوفد المُدافع عن جُبران:

«إنّ كُتبه تُقرأ في كَنائسِ أمرِيكا، فَهل يُعقل أن يكونَ كَافِرًا مَن يَقولُ مُخاطبًا السيدَ المسِيحَ في كِتَابه «يسوع ابن الإنسان»:

«وأنتَ أيها الجبّارُ المصلوبُ، النَاظرُ مِن أَعَالي الجَلْجَلة إلى مُواكبِ الأَجيالِ، السَامعُ ضَجيجَ الأُممِ الفَاهمُ أَحلامَ الأَبديّةِ... أنتَ عَلى خَشَبة الصّليب المضرّجَة بِالدّمَاء، أَكثرُ جَلالاً ومُهابةً مِن ألْفِ ملِك علىَ ألفِ عَرْش، في أَلْفِ مملكة... بلْ أنتَ بَين النزعِ

والموتِ، أشدُ هَؤلاءِ قوّةً وبَطشًا مِن أَلفِ قَائدٍ وأَلفِ جَيش، وألف معرَكة... أَنتَ بِكآبتِك أَجملُ مِن الرّبيع بِأزهَاره، بَلْ أنتَ بينَ الجَلّادِين أكثرُ حُريةً مِن نُورِ الشَمسِ.. إنّ إكليلَ الشّوكِ عَلى رأَسِكَ، هوَ أجلّ وأجملُ مِن تَاج بهرام، والمسمارُ في كفّك أثمَنُ مِن صَولجان المشترَى، وقطراتُ الدّماءِ على قَدَميك أسْنى لمعانًا مِن قَلائِدِ عشتروت».

تَأثّر البَطريركُ وبَكى. وقَالَ آمرًا الكَهنة: «انْزلوا إلىَ بَيروت، واستقبلوا جُثمان جُبران، فهو أكثرُ تَدّينًا مِنّا».

استَقبلَ جُثمان جُبران نحو ١٦٠ كَاهِنًا في مَأتمٍ جَلَلٍ شَهدتْه كَاتِدرائيةِ القدّيس جِرجِس في بيروت.

فَشَلَ الثّرى في أنْ يقبُرَ «عواصفَ» جُبران، وعاشتْ فَلسفتُه لتَثيرَ غَضبَ مُعظَم رِجَالِ الدّين -مَسيحيين ومُسلمين- وخَناجرَ المُتَشدّدين وسخَطَ المقلّدِين ممّن صَدأتْ أَروَاحُهم وأُغلقتْ عُقولُهم. وسَيظلُّ جُبران نَاقوسًا مُزْعِجًا مَا بقيَ الشَرقُ جَسدًا تَنهشُه عِللُ البَلادَة، وأهلُه يتلذّذُون ركوعهم مِن المهْد إلىَ اللّحدِ أمَامَ طَواغِيتِهم ومَا أَلفَوْا عَليه آباءَهم، دُونَ أنْ يَتأملُوا الحَياةَ ويُعِيدوا مَعرفةَ أَنْفسِهم بِوعْيٍ وَفكْر طَلِيق.

# جبران خليل جبران

## ١٨٨٣م-١٩٣١م

## حياتــه وآثــاره

### مولده.. نشأته.. سفره

وُلد جُبران في بَلدة بشرّي المتّكئةِ عَلى كَتِف وَادي قاديشا، في ظِلالِ الأَرْز حَيثُ تَتَفجرُ الأَرْضُ مَاءً وخُضرةً وزهرًا، والثُلوجُ تعمّم الجِبالَ مُعظمَ فُصولِ السنة، وكَانت وِلادتُه صَباحَ السَادسِ مِن كَانُون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٣م، في كَنَفِ عائلةٍ قليلةِ الموارِدِ مؤلّفة مِن الأب خليل، والأم كامِلة رحمة التي كَان لها مِن زَواج سَابق ولدٌ اسمُه بُطرس، ورُزقت مِن زَواجها مِن خليل جُبران ثلاثةَ أَولاَد: جُبران أكبرهُم، وأُختَاه مَرْيانَا وسُلطَانة.

في الخَامسةِ مِن عُمره تَلّقىَ مَبادئَ العَربيّةِ والفَرنسيّة والسِّريانيّة في مَدرسةِ أليشاع «تحت السّنديانَة» وتعرّفَ عَلى النَهضةِ الإيطاليةِ مِن جَرّاء تردّده علَى مَركزٍ للرُّهبَان الإيطَاليين.

أُصيبَ والده بِنكسة ورَاحَ ضَحيةَ تُهمة أودَت بِه إلىَ السّجن، فَلملَمت كَامِلة رحمة نفسَها وسَافَرت مَع أولادها الأربعة: بُطرس، وجُبران، ومريانا وسلطانة إلى أمريكا، سنة ١٨٩٤م.

## في بوسطن:

استقرتِ العَائلةُ في الحيّ الصينيّ مِن مَدينةِ بُوسطُن، حَيثَ دَخلَ جُبران مَدرسةً شَعبيةً تَعلّم فِيها أصولَ اللغةِ الإنجليزيّة، وكَانَ له، بِفضلِ مُعلّمته الأمريكية، لِقاء مَع «فريد هولاند» الذي ساعدَه عَلَى دِراسةِ تِقنيةِ الرسْمِ ومكّنه مِنْ مُواصَلة تَعلّم الإنجليزية.

وبَعد ثَلاث سَنوات مِن العَملِ والكَدّ، استَطاع أَفرادُ أسرتِه أن يَجمعُوا مِقدارًا مِنَ المَال مَكّنهم مِن إرسَال جُبران إلى بَيروتَ ليدرُسَ اللغَةَ العَربيةَ والفَرنسيّة، لأَنهم تَوسّموا فِيهِ الرجلَ النَابغَةَ الذي سَيكون له مُستقبلٌ بَاهر، ومكانةٌ سامِقة، في عَالمِ الفِكر.

## بيروت: مدرسة الحكمة

في بَيروتَ التحَقَ بِمدرسة «الحِكمة» وطُوال ثَلاثة أعَوام اسْتَطاعَ أن يُوسّعَ مَعرفتَه باللّغة العَربيّة، وتتفتّحَ له، بفضلِها، آفاقٌ جَديدة، وكانَ له رُفقاءُ وطّد معرفتَه بهم، ومِنهم النحّات يوسُف الحويك الذي سيكونُ لَهُ شَأنٌ كَبير في حيَاة جُبران. وكَان مُعلّمه في اللُغَة العَربيّة الخوري يوسُف الحدّاد الذي استَقَى جُبران مِنهُ اللُغَةَ مِن مُورِدهَا العَذْب، فَأجادَهَا وأَبْدعَ فِيهَا.

## العودة إلى بوسطن: تجربة الموت

وفي عام ١٨٩٩م، عامَ عَودته إلى بُوسطن بَدأ في مُزاوَلةِ الرّسْم والكتَابةِ، لَكنّ الفَواجِعَ العَائِليةَ تَوّالت عَليهِ فَأوقَفتهُ مُرغَمًا أمَام تَجرُبة الموتِ، وذَلك عِندَما مَاتت أُختُه الصُغْرَى سُلطَانة بِمرض السّل عَام ١٩٠٢م، ولِحَقَ بها أخوه بُطرس، ثُمَّ أمّه، في السنةِ التَالية، وبِالمَرض عينهِ، فَاستوْلى الحُزنُ واليَأسُ عَليه، وَعبّر عَن ضَراوة ألمه بِقوله بَعد مَوتِ أمّه: «فَقدتُ يَنبوعَ الحُنوّ والرَأفَةِ والغُفْرَانِ والصّدرَ الذي أسندُ إليه رَأسي، واليَد التي تُبَارِكني وتَحرُسني».

إلاَّ أنّ هَذهِ الفَواجِعَ لم تهدّ عَزيمَةَ جُبران، بلْ وجدَ فِيهَا حَافزًا للانطِلاقِ مِن جَديدٍ في عَالمِ الفَنّ، واستطَاع سَنة ١٩٠٤م أنْ يُقيمَ مَعرِضًا لرسُومه الرّمزيّة، تَعرّفَ خِلاله إلىَ سَيدةٍ أمريكية تُدعىَ «ماري هاسكل»، وعَلَى جَانب مِنَ الثّراء، فَقد أُعجِبتْ بِرسومِه وأَظهرتْ إعجابهَا بها، ودَعتْه إلى عرْضِها في المدرسةِ التِي كَانت تديرُها.

وقدْ كَان لماري هَاسكل هَذهِ دَورُهَا الحَاسمُ في تَوجِيههُ الأَدبيّ والفَنيّ. فَقدْ مَنحت الفَنانَ النَاشئ رِعَايتَها ومُسَاعدتَها فأكبّ يَرسُم ويكتُب، وَينطلِق، وبِالتَالي، في عَالم الشُهرة، وشِعارهُ: «لا أريدُ أن أكتُبَ اسمي بِماء عَلَى سِفْر الوجود، بَل بِأحرفٍ مِن نَار».

وفي العَام نفسه، ١٩٠٤م التَقَى جُبران أمين الغريب صَاحبَ جَريدة «المُهاجَر» فأُعجِبَ هَذا الأَخيرُ إِعجَابًا شَديدًا بِخَواطِرِ جُبران ورُسُومِه. وعَرضَ أن يَنشرهَا في جَريدَتِه، وفي آذار (مارس) مِنَ السّنَةِ نَفسِها ظَهرَ أولُ مَقال لجُبران عِنوانُه: «رُؤيَا» وكَان لَهُ صَدَاهُ الواسِعُ والعَمِيقُ والبَليغُ لَدَى القُراءِ مِنْ حَيثُ طَرَافَةِ النّهج والإِبدَاعِ في الخَيَالِ.

هَذهِ الانطلاَقةُ شَجَعتْه عَلَى أنْ يَجمعَ مَا كَانَ ينشُره في الصّحف مِن مقَالاتٍ وأقَاصِيصَ في ثَلاثةِ كُتُبٍ نَشرَها عَلَى التوَالي خِلالَ أَربَع سَنوات وَهيَ: المُوسيقى (١٩٠٥م)، وعَرائِس المُرُوج (١٩٠٦م)، والأَروَاح المُتمَردَة (١٩٠٨م).

## باريس: تجربة فنية لامعة

وكانَ جُبران أبدَى لماري هاسكل رَغبَته في تَعلُّم أصولِ الرّسم في بَاريسَ، فَلم تَقفْ ماري حَائِلاً دُونَ تحقيقِ رَغبتهِ، إذْ لم تَكُن تَضِنَّ عَليهِ بِالمُسَاعَدة الماديّة. كَما لم تكُن تَضِنّ عَليهِ بِحنَانِها، فلّبت رغبته وأرسَلتهُ إلى باريس عام ١٩٠٨م.

وفي باريسَ أقَامَ سَنتين يختلفُ إلى مَدرسَة «الفنُون الجَميلة» ويَتلقىَ دُروسَ «أكَادِيمية جُوليَان» التي لم يَطُلْ بِه الوَقتُ حَتى تركَها

لُيمَارِسَ الرسّمَ الحُرَّ في مُحترف اسْتَأجرَه هُو وصَدِيقُه النّحَات يُوسف الحويك. وكَانت هَذهِ المَرحَلةُ مِنْ حَيَاتِه مَحطّةً بَارِزة فَتحتْ لَهُ آفَاقًا جَديدة. ولم يَنسَ «لُبنانه» فظَلّ يحِنّ إليهِ ويَتَذكّره شَمسًا طَالِعةً مِن وَرَاءِ صَنين، أو جَانِحةً إلى الغُروب. وطلولاً وأودية يَنسَاب مِنها السّحْرِ انسِيابَ العِطر مِن الزهْر الفوّاح. أمَا الكَسْبُ الرَفيعُ الذي نَالهُ في بَاريس والذي ملأهُ عزّة وفَخرًا. وهُوَ أنَّ الجَمعية الوطنية للفِنون الجَميلة، في بَاريس، اختَارت إحدَى لَوْحَاته مِنْ بَين تِلكَ التي عَرَضَها في المَعرِض الذي أقَامته. فَلا تَسلْ، إذ ذَاك، عَن نَشوة الفَنانِ التي تَفُوق كُلّ وَصْف.

## إلى بوسطن فنيويورك

عَام ١٩١٠م عَادَ إلىَ بُوسطن، وانتقلَ عَام ١٩١١م إلى نيويورك بِإلحَاح مِن أَمِين الريحَانيّ الذي التقَاهُ في بَاريس، فَاستَأجرَ غُرفةً في غرينتش، حَيّ الفَنَانِين في تِلكَ المَدينَة، ونشر في السنة ١٩١٢م «الأجنحة المتكسرة» وهِيَ قصّة جَمع جُبران بَينَ دِفتَيها أصْدَاءَ خَفقَاتِ قَلبِه حَتىَ تعرّف، أثنَاء إقَامَته بَينَ بيرون وبشرّي إلى حلا الضاهر، وأَهْدَى هَذَا الكِتابَ عَربونَ وَفاءٍ إلى ماري هاسكل «التي تحدّقُ بِالشمسِ بِأجفَانٍ جَامدة، وتَقبضُ عَلَى النَّار بِأصابعَ غَيرِ مُرتَعشة،

وتَسمعُ نَغمةَ الرُوح الكلّي مِن ورَاء ضَجِيج العُميان وصُرَاخِهم».

في سَنة ١٩١٤م جَمعَ في كِتَاب أسمَاه «دمعة وابتسامة» مَقَالاتٍ كَانَ قَد نَشرَها في بَعض المجلّات والصّحُف. وفي الآنَ نَفْسه، كَانت ماري هاسكل تُشّجِعُه وتَدْفَعُه عَلَى الكِتَابةِ بِاللغَة الإنجليزية؛ فَأصدَر «المَجْنُون» سنة ١٩١٨م، و«السَابِق» سنة ١٩٢٠م.

وفي اللُّغَة العَربيّة صَدَرَ لَهُ «الموكب» سنة ١٩١٩م، و«العَوَاصِف» سنة ١٩٢٠م، و«البَدَائِع والطَرَائِف» عام ١٩٢٣م.

إبّانَ الحَرب العَالميةِ الأَولَى، حَلّت الكَارِثة بِلُبنَان فَجوّعت أبنَاءَه وشرّدَتهم وقَضْت عَلَى الآلافِ منهم، فَتنغّص عَيشُ جُبران، وعبّر في سِلسِلةٍ مِنَ المَقَالاتِ التي نَشَرهَا، عَن هَوْل الفَاجِعةِ وأثرِهَا في نَفسِهِ، ولم يَكتفِ بالكتابةِ بَلْ سَاهَم مَعَ بَعض إِخْوَانِه الأُدبَاءِ في إِنْشَاء لجنَة إغَاثةِ المَنْكُوبينَ التي استَطَاعت أنْ تُخفّف -بَعضِ الشَيءِ- مِن وَطأة المأسَاةِ عَلَى اللُبنَانِيين.

## تأسيس الرابطة القلمية:

في هَذِهِ المرحَلة توَطّدت عِلاقَاتُ جُبران بِكَثيرٍ مِنَ الأُدَباءِ اللُبنَانِيين والسُورِيين فِي المهاجَر، فعَقدُوا الاجتمَاعَاتِ الكَثِيرةَ وقَرّروا

إنشَاءِ جَمعيةٍ تَنهضُ بِالأدب العَربيّ الرَاكدِ إلىَ المُستَوى العَالميّ. وبَعدَ أَنْ وَضعت الحَربُ أَوْزَارَهَا، اسّتَمرت الاتصالاتُ بَينَ هؤلاءِ الأُدبَاء، التي انْتَهت بِتَأسِيس «الرَابِطَة القَلَميّة» التي كَانَ شِعَارُهَا انتِشَال الأَدَب العَربيّ «مِنْ وَهدَة الخُمُول والتَقلِيدَ إلىَ حَيثُ يُصبِحُ قُوةً فَعَّالة فِي حَياةِ الأمّة».

تَأسَسَت الرَابِطَةُ سنة ١٩٢٠م بِرئَاسَةِ جُبران، وكَانَ سَائرُ أَعضَائها المؤَسّسِين: ميخائيل نعيمه، نسيب عريضة، رشيد أيوب، ندرة حداد، وليم كستفليس، إيليّا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

غَيرَ أنّ اهتمامَهُ بِأمُور «الرابطةِ القَلميّة» لم يَصْرفْه عَن الاهتمام بِنتَاجِهِ الشَخصيّ فَأصدَر سنة ١٩٢٣م رَائِعته «النَبيّ» بِاللغَة الإنجلِيزية. قَالَ عَنهُ: «إنّه دِيَانتِي وأقدسُ قُدسيّاتِ حَيَاتي». وقال عنه لماري هاسكل في إِحدَى رَسَائِله: «أُريدُ أنْ أَحيَا الحَقِيقَةَ. بَدَلاً عَن الكِتَابةِ عَن النَّار. أفضّلُ أنْ أكُونَ جَمْرةً تَتَأجّج، أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مُعَلمًا. وبِمَا أنيّ مُستَوحَد أُرِيدُ التَحَدُّث إلىَ جَميع المستوحدين».

## مرضه وموته:

ومَعَ أنّ المرضَ لازَمَهُ كَطِيفٍ فَقَضّ عَليهِ مَضجَعَه، إلاّ أنّه مَا

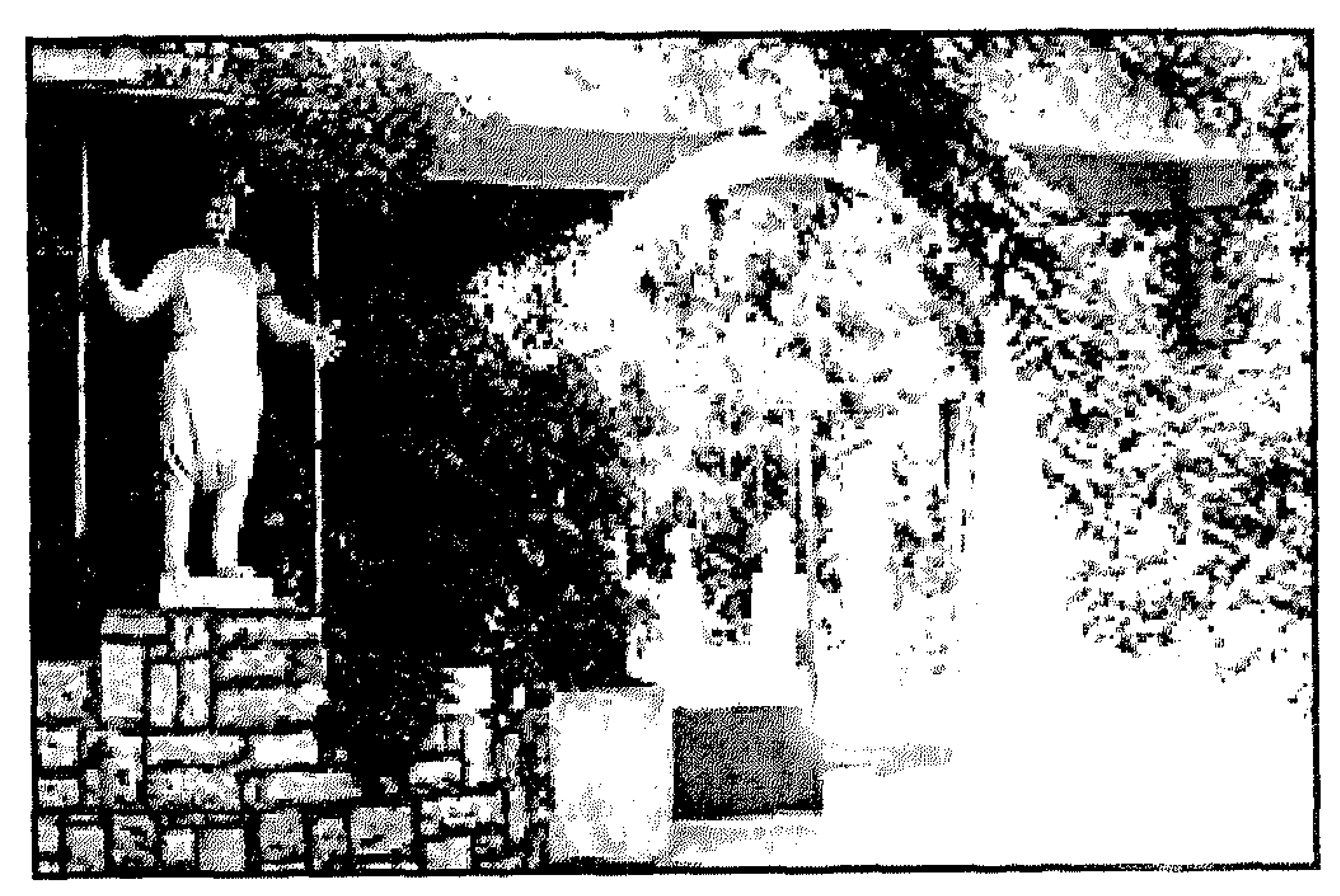
استَسلمَ لمشِيئةِ القَدَر، فَلم يَنْقَطِعْ يَومًا عَن الرّسْم والكِتابةِ، واستَطَاعَ أنْ يُصدِر عَلَى التَوالي في اللُّغَـة الإنجليزية: رَمل وزَبَد (١٩٢٦م)، يسوع ابن الإنسان (١٩٢٨م)، آلهة الأرض (١٩٣١م سنة وَفاته) وصَدَر «التَائِه» سنة ١٩٣٢م، أَي بَعدَ وَفَاتِه بِسَنةٍ وَاحِدة. و«حَدِيقَة النَبيّ» سنة ١٩٣٣م.

لكنّ طَاقةَ جِسْمَه اسْتَنفَذَهَا جُبران في عَمَلِه المُرهَق، فَلفَظَ أَنْفَاسَه الأَخِيرة في ١٠ من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١م، ونُقل جُثمانُه صَيفَ ذَلِكَ العَام إلىَ مَسقَط رَأسه بشرّي، بِنَاءً عَلَىَ وَصيّته. وكَانت رَقدَتُه الأَخِيرةُ في صَومَعةِ دِير مَار سَركِيس المُطّلةِ عَلَى الوادي المُقدّس.

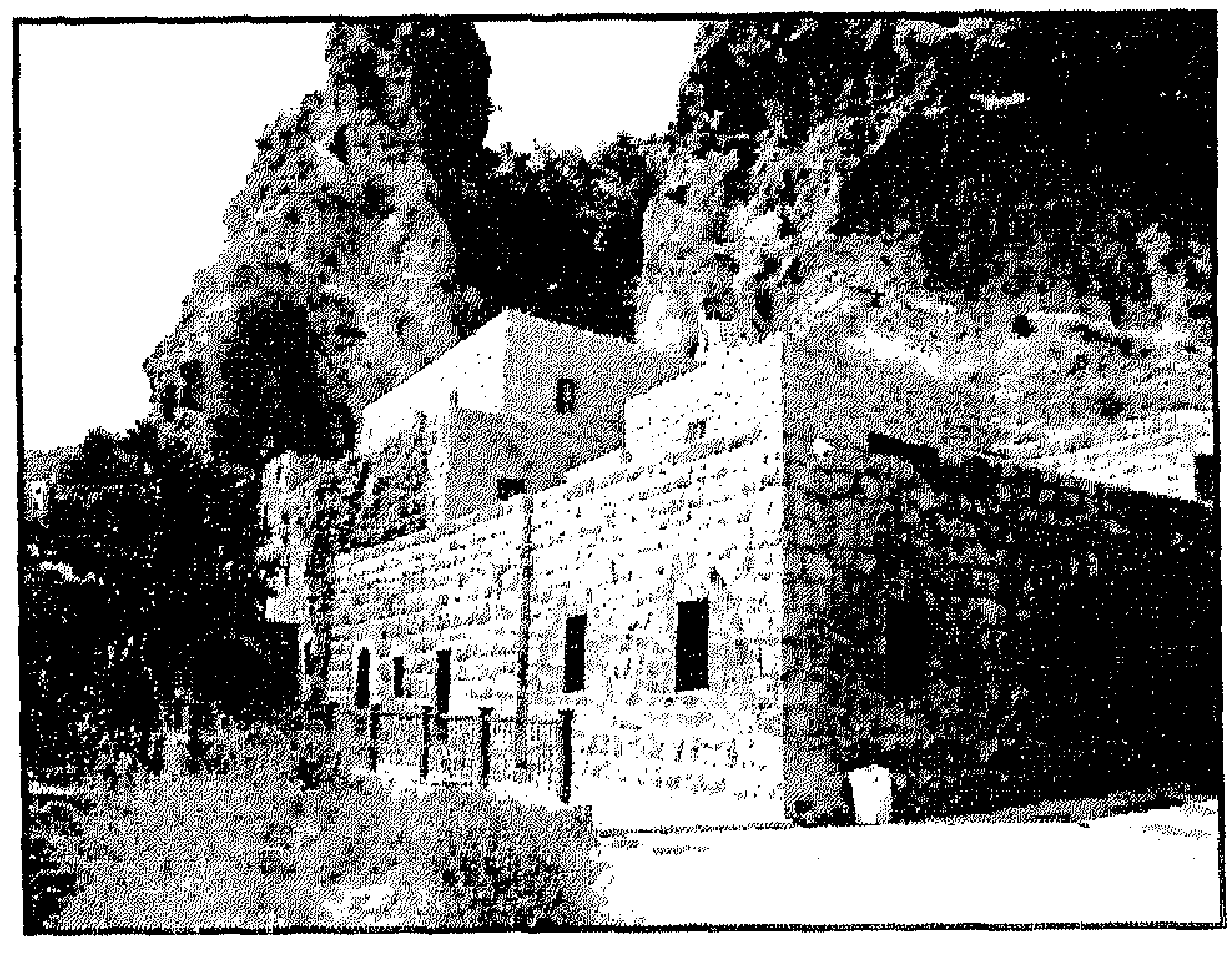
❑❑❑



جبران في مدرسة الحكمة – بيروت



منزل جبران في بشري



قبر جبران ومتحفه في غابة مارسركيس

# عرائس المروج

## عرض:

«عرائس المروج» هي الكتاب الثاني لجبران، أصدرها بعد «الموسيقي» سنة ١٩٠٦م، وفيها ثلاث أقاصيص واقعيّة عناوينها: رماد الأجيال والنار الخالدة، مرتا البانية، ويوحنّا المجنون.

نشر جبران هذه الأقاصيص فى جريدة «المهاجر»، حين كان يعاني اضطرابًا نفسيًّا شديدًا بسبب حزنه على أخته وأمه وشقيقة وحالته البائسة. ثم جمعها فى كتاب قدّم له صاحب «المهاجر» أمين الغريّب. وأهداها إلى النجمة التي بدأت تبدِّد ظلمته الباطنية إلى ماري هاسكل بهذه العبارة المؤثرة على النسخة الأولى:

«مع حبّ طفل قويّ إلى مارى اليزابت هاسكل».

ولم يشأ أن يكون الإهداء واضحًا بالنسبة للقارئ فجاء هكذا:

«إلى التي تحدّق إلى الشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة، وتسمع نغمة الروح».

وكانت ماري هاسكل، وهي تكبر جبران بعشر سنوات، بمثابة أمّ

له. لذا جاء في إهدائه الخاصّ «مع حبّ طفل».

ما هي موضوعات الكتاب؟

موضوع الأولى «رماد الأجيال والنار الخالدة»: يدور حول ابن كاهن قديم عاش في بعلبك مدينة الشمس، في خريف سنة ١١٦ قبل الميلاد، وفَقَدَ حبيبته التي أحبّها حبًّا يقرب من العبادة، فهام على وجهه يتعثر في خيبته. إلاَّ أن حبّه لم يمت بموت العشيقة، لأنه خالد، وهذا ما ترمز إليه النار الخالدة في العنوان. لقد كَمَنَ الحبّ كما تخمد النار تحت الرماد، رماد الأجيال ليُبعَث حيًّا سنة ١٨٩٠م. وكيف يموت الحبّ، في نظر جبران، وهو يرتكز إلى أحلام وعواطف «تبقى ببقاء الروح الكليّ الخالد. تغيب ثم تشرق كالشمس والقمر»؟

عاد الحبيبان إلى الحياة، إلى بعلبك، بعد أن تقمّصا. هو تقمّص غنّامًا وهي تقمّصت قرويّة. لقد أعادت عشتروت ربَّة الجمال، روحيهما إلى الحياة ليتذوّقا «ملذّات الحبّ ومجد الشبيبة» ما طاب لهما.

العاشق الأوّل هو ناثان ابن الكاهن حيرام وقد تقمّص علي الحسيني.

موضوع الثانية «مرتا البانية»: فتاة قرويّة يتيمة، بسيطة القلب،

رقيقة الحال، أغواها شاب جميل الطلعة، أنيق الهندام، التقاها مصادفة. كانت يومذاك في السادسة عشرة من عمرها، جالسة قرب العين تتأمل أوراق الخريف المتناثرة، وتتطلع إلى الزهور الذابلة.

ترجّل الشاب عن حصانه لمّا رآها وطلب إليها أن تدلّه إلى طريق الساحل، فلم تستطع تلبية طلبه فاحمرّ وجهها خجلاً. وشعر كلّ منهما بشعور شديد يستولي عليه.

ولم تعد مرتا ذلك المساء إلى منزل وليّها، ولم يَرها أحد في القربة بعد ذلك اليوم.

استسلمت مرتا إلى ذلك الفتى استسلامًا أعمى،فلما حملت منه نبذها وكأن شيئًا لم يكن، فاضطرت أن تتردى في هاوية البغاء لكي تعيل طفلها.

لمّا عاد المؤلف من بشرّي إلى بيروت حيث كان يدرس في معهد «الحكمة»، التقى صبيًّا في ثياب رثّة يعرض عليه باقة زهر، فأشفق عليه وراح يحدّثه ويسأله عن أبويه، فعلم أن أمه مريضة.

مضى الكاتب مع الصبيّ إلى أمّه القاطنة في أحد الأزقة القذرة. وراح يؤاسي تلك المسكينة، ضحية الغدر، ففتحت له قلبها وروت له

حكايتها مع ذلك «الحيوان المختبئ في الإنسان».

وماتت مرتا فلم يشيّعها إلى القبر إلا ابنها وفتي آخر هو راوي القصة.

إن بطلة القصة الواقعية هذه عرضها جبران حقاً، وقد روى يوسف الحويك النحات المعروف أنه كان مع جبران في مقهى «كوكب الشرق» في بيروت يوم رأيا طفلاً يبيع أزهارًا لكي لا يتسوّل، فإذا بجبران يسنطقه ليعلمَ ما الذي حمله على هذا العمل الشاقّ، وهو يكاد يكون في مرحلة الطفولة، فأثار شفقته وجعله يمضي معه إلى زيارة أمه البائسة.

في رسالة وجّهها جبران إلى صديقه «جميل المعلوف» وصف هذه القصة بأنها «دمعة محرقة أثارها أوجاع المرأة الساقطة التي تتبع الرجل قبل أن تسمع نداء قلبه وقبل أن تشعر نفسها باهتزازات الحبّ الإلهيّ التي تُحدِثُها ملاقاة النصف الحقيقي».

موضوع الأقصوصة الثالثة **«يوحنا المجنون»**: تروي حكاية راع في شمال لبنان، دفعه الفضول إلى قراءة «العهد الجديد» سرًّا على نور مسرجة ضعيفة، وكان بعض الكهنة ينهَوْن بسطاء القلوب عن قراءة

هذا الكتاب المقدّس.

رأى يوحنا، بطل القصة، أن التعاليم التي قرأها في الأنجيل تختلف عن واقع الحياة، حيث الرحمة أملٌ يُرتجى، وحيث الإخاء الإنسانيّ وَهْمٌ خلاَّب.

فيما كان يوحنا يرعى أبقاره صرفه التأمل في ما قرأه فى «العهد الجديد»، عن رقابة أبقاره التي ارتعت قليلاً من زرع الدير، فحبسها الرهبان عليه، وحبسوه، فراح يصرخ مستغيثًا بربِّه:

«تعالَ ثانية يا يسوع واطرد باعة الدين من هياكلك».

واضطُرَّ والد يوحنا إلى أن يشهد أمام الحاكم أن ابنه مجنون، لكي يستطيع أن ينقذه من السجن، ثم خُيِّل له حقًا أنه معتوه.

وأصبح يوحنا موضع سخرية عارفيه من الفتيان والصبايا، لكنه استمر مؤمنًا بالعدالة الإلهية.

وتنتهي القصة بهذا الحوار الذاتي:

«قولوا عني ما شئتم فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس».

## تحليل الكتاب:

ثمّة أقصوصة لا واقعية هي الأولى، وأقصوصتان واقعيّتان هما الباقيتان.

في «رماد الأجيال والنار الخالدة» طَرْحٌ لنظرية جبران في التقمّص، التي اعتنقها عن بعض العقائد الهندية وعقائد الشرق الأقصى، ولا سيّما البوذيّة: إنها تفسير لعودة الإنسان، بل لعوداته إلى الحياة في سبيل استكمال ما لم يستطعه في حياته الأولى، تحقيقًا لأحلامه على دروب الألوهة.

من هنا تضمَّنت الأقصوصة مرحلتين زمنيّتين تفصل بينهما مئات السنين، وتجمع بينهما شخصيّتان لهما الروحان عيناهما وإن اختلفت الأسماء والمظاهر.

وفي هذه الأقصوصة أيضًا تأكيد على وحدة الوجود، واعتبار الجسد مجرّد نقاب يحجب ألوهة الروح.

رجع المؤلف إلى القرآن الكريم تعزيزًا لنظرته في التقمص، لكنّه فسّره على هواه، كما استشهد ببوذا فأصاب الهدف.

قال بوذا: «كنا بالأمس في هذه الحياة، وقد جئنا الآن، وسوف

نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة».

وانطلاقًا من هذا المبدأ أعاد جبران بطليْه إلى حياة جديدة.

إن التماسك القصصي هشّ يفتقر إلى التسلسل المنطقي سواء في السرد أم في استخلاص المغزى. وهناك بعض التناقض في سياق العرض، إذ البطل يختار حبيبته أولاً بمشيئة عشتروت، ثم لا يلبث أن يحدّث هذه الآلهة كيف اختار هو نفسه، بدون مشيئتها على ما يظهر، عروس أحلامه.

في «مرتا البانية» يُفرغ جبران نقمته على مجتمع انحلّت فيه القيَم الخلقية، فإذا الغنيّ يستبيح هتك الأعراض إشباعًا لشهواته. لقد وقعت مرتا القروية البريئة ضحيّة ذئب، ولمّا افترسها أعرض عنها غير مبال، وكأن الفتاة سلعة ليس إلاَّ. لكن مرتا وإن تدنّس جسدها، ظلّت نقيّة طاهرة بروحها. ظلّت نموذجًا صارخًا للفتاة المغلوبة على أمرها، التي تحمل وزر أخطائها وتجابه قَدَرها بجرأة. إنها لم تُمِتِ الجنين في أحشائها، بل أرضعته من حنانها طفلاً. ولمّا عجزت عن إعالته دفعته شريدًا إلى دروب الحياة.

روى جبران في هذه الأقصوصة حدثًا عايشه بقالب شعري غنيّ

بالصور، ولكن بتركيب بيانيّ ركيك. وهي كسائر أقاصيص جبران لا تنتهي إلى ذروة انفعالية تنطوى على مفاجأة حسب مفهوم الأقصوصة الأصولي.

أمّا الأقصوصة الأخيرة «يوحنا المجنون»، فقد شرح جبران نفسه في رسالة موجَّهة إلى «جميل معلوف» ما أراده منها، إذ قال:

«هي كلمة من رواية مُحزنة متستتبَّة على مسرح الليالى، رواية حيّة بحياة الخضوع الأعمى، والاستبداد المميت، وقد نظرت فرأيت أن السُّبل التي اتَّخذها الكتّاب فيما مضى لمقاتلة استبداد الأكليروس مضرّة بمبادئ أولئك، الذين يتَّخذون احتقار التقاليد الدينيّة سبيلاً لإسقاط الكهّان القائمين بهذه التقاليد. إنه الخطأ بعينه لأن العاطفة الدينيّة شيء طبيعي في الإنسان. أمّا الاستبداد بواسطة التعاليم الدينية فليس من الأمور الطبيعية بل هو بعكسها. من أجل ذلك جعلت يوحنّا مُحبًّا ليسوع، مؤمنًا بإنجليه، أمينًا على تعاليمه».

إن حكاية يوحنا المجنون تُذكّر بحكاية اعتقال أسعد الشدياق في شمال لبنان الذي اتّهم بالكفر لأنه اعتنق المذهب البروتستنتي. أمّا الدير فهو دير إليشاع النبيّ، ومازال قائمًا كما وصفه جبران.

لقد حاول جبران من خلال هذه الأقصوصة، أن ينـدّد برجال الدين، الذين لا يمارسون هم أنفسهم تعاليم المسيح الداعية إلى الرحمة والتضحية، فيما هم يعلّمون الناس هذه المبادئ السامية فى المدارس ويعظون بها فى الهياكل.

لقد تطرّف جبران فى ثورته الانفعالية، فكال كلّ رجال الأكليروس بمكيال واحد، وجعل الصالح بينهم ضحيّة الطالح.

## ملاحظات عامة:

جبران كاتب ذاتيّ، قلّما استطاع أن يخرج من ذاتيَّته ليدخل في ذاتيّة أبطال قصصه كما يفترض الفن القصصى. فمعظم شخوصه يتكلّمون بلسانه ويعبّرون عن آرائه هو، «مرتا»، في ثورتها على الغدر والخداع، ويوحنا في حملته على رجال الدين الذين يتنكّرون في أعمالهم لما يتعلَّمون في الإنجيل ويبشِّرون به، هما يستعيران صوت جبران، فأنى لمرتا اليتيمة التي لم تدخل مدرسة، وأنى لراعي البقر يوحنا تلك البلاَغة في التعبير.

وأحيانًا كثيرة يتجاوز جبران شخوص الأقاصيص ليعِظَ توجيهًا وتنديدًا في نبرة إنجيليّة. أما الأسلوب فهو ثمرة فجّة، ذلك أن جبران

وهو بعد في بداية عهده بالكتابة ما كان قد تمرّس بعد على أصول البيان والتركيب اللغوي السليم، وهو إلى هذا يردّد التعابير عينها، ويكثر من النعوت التي تضعف طاقة الكلمة بدل أن تعزّزها. وهو يعتمد ألفاظًا لا تفي بقصده، وكأن بينه وبين القاموس عداوة.

من سيئات هذا الأسلوب، على طلاوته ورونق تشابيهه، تعاقب الجمل على المعنى الواحد، واستعمال الفاعل الثقيل الوقع بدل الفعل المجرد كما في هذه الأمثال:

«مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي، واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيَّتي».

«مسمع منصت لوحي المحبة، وعين مبصرة مجد السعادة[1]».

**أهداف الكتاب:**

أهم الأهداف التي رامها جبران في هذا الكتاب، ما عدا عرض أفكاره في التقمص ووحدة الوجود هي:

تقديس الطبيعة، على طريقة الرومنسيين، التي تتجلَّى في أسمى

(١) من «رماد الأجيال والنار الخالدة».

مظاهرها في القريةرمز الطهر والعفوية والنقاء؛ وبالمقابل ذمّ المدينة، بؤرة الفساد الخلقي والاجتماعي: «نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة، لا نعرف شيئًا عن معيشة سكّان القرى والمزارع المنزوية في لبنان، قد سرنا مع تيّار المدنيَّة الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهرًا ونقاوة، تلك الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع، مثقلة في الصيف، مستغلة في الخريف، مرتاحة في الشتاء، متشبهة بأمنا الطبيعة في كل أدوارها».

- تحذير الفتاة من مغبّة الانقياد إلى نزوة عابرة.

- تمجيد الحَبّ والجمال والفضيلة.

***

# عرائس المروج

## إهـــــداء

إلى التي تحدق إلى الشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة وتسمع نغمة الروح.

جبران

# رماد الأجيال والنار الخالدة

## (١)

## توطئة

### (في خريف ١١٦ قبل الميلاد)

سَكَنَ الليلُ ورَقَدَتِ الحياةُ في مَدينةِ الشَمسِ(١) وَأُطفِئَتِ السُرُجُ في المَنازلِ المُنتَشرةِ حَولَ الهيَاكلِ العَظيمَةِ القَائمَةِ بينَ أشجارِ الزَيتُونِ والغَار(٢)، وطَلَعَ القمرُ فانسَكَبَتْ أشعَّتُهُ على بَياضِ الأعمِدَةِ الرُخَاميّةِ المُنتَصِبَةِ كالجبابِرَةِ تَخفِرُ(٣) في هُدوءِ الليلِ مَذابحَ الآلهةِ،

(١) مدينة الشمس: هي بعلبك. مدينة لُبنانية. مركز قضاء بعلبك فى محافظة البقاع. يدل اسمها الحالى على أصلها الفينيقى. بعل البقاع هو دون شك الإله هداد. اشتهرت في العهد السلوقي وعرفت باسم هليوبوليس (مدينة الشمس). أصبحت مستعمرة رومانية في عهد أوغسطوس قيصر. منها انتشرت عبادة «جوبيتر البعلبكي» في أنحاء الإمبراطورية. شيَّد فيها الرومان (١٣٨-٢١٧) على أنقاض المعبد القديم هياكل رائعة لا تزال بقاياها من الآيات كُرِّست للآلهة الثلاثة جوبيتر ومركور وفينوس. من آثارها: هيكل مركور الرائع المعروف بهيكل باخوس، والأعمدة الستة.

(٢) الغار: شجر طيّب الرائحة من فصيلة الغاريات ينبت بريًّا. ورقه دائم الاخضرار وخشبه صلبٌ وعَطِرٌ. يُستخرج من عنبيَّاته نوعٌ من الزيوت صالح كدهن ضد الأوجاع. كانوا قديمًا يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين. وتستعملها ربَّات البيوت لتطييب نكهة الأكل.

(٣) تَخفِرُ: تحمي، تجيرُ، تحرسُ.



وتَنظُرُ تيهًا[1] وإعجَابًا نحوَ بُروجِ لُبنانَ الجَالسةِ في الوَعْرِ[2] على جَبهاتِ الروَابي البَعيدة.

في تلكَ الساعةِ المَملوءةِ بسِحْرِ الهُدُوءِ، المُوَحِّدةِ بينَ أرواحِ النِيامِ وأحلامِ اللانِهاية، جاءَ ناثانُ ابنُ الكَاهنِ حيرامَ ودخلَ هَيكَلَ عَشتَروتَ[3] حَامِلاً مِشعَلاً، وبيَدٍ مُرتَجفةٍ أنارَ المَسارجَ وأوقَدَ المَباخِرَ فتَصاعَدَتْ روائحُ المُرِّ واللُبَانِ، ووَشَّحَتْ تِمثَالَ المَعبودَةِ بنِقابٍ لطيفٍ يُشَابِهُ بُرقُعَ[4] الأماني المُحيطَ بالقلبِ البَشريّ، ثم رَكَعَ أمامَ المَذبحِ المُصَفَّحِ بِرُقُوقِ العَاجِ والذَهَبِ ورفَعَ يدَيْه ونظَرَ نحوَ العَلاءِ ومِن عينَيه الدموعُ تَستدرُّ الدُموعَ، وبصوتٍ تَخفِضُهُ الغَصَّاتُ الأليمةُ وتقطَعُهُ اللوعةُ القاسيةُ صرَخَ قائلاً: رُحماكِ يا عَشتروتُ العظيمة - رُحَماكِ يا ربّةَ الحُبِّ والجَمال، ترأَفي بي وأزيلي يدَ المَوتِ عن حَبيبتي التي اختارَتْها

(١) تيهاً: اختيالاً.

(٢) الوَعْر: المكان المخيف، والمكان الصعب.

(٣) عشتروت: ربّة الحبّ والخصب والحرب. معبودة الفينيقيين. امتدّت عبادتها من أوغاريت إلى المدن الفينيقية الأخرى. صيدا وصور وجبيل وبعلبك. قالوا فيها: «موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة». هي عشتار لدى سكان ما بين النهرين، وأفروديت عند اليونان، وفينوس عند الرومان. وقد أخذ اليونان والرومان عبادتها من الفينيقيين.

(٤) بُرْقُع: حجاب. وهو في الأصل ما تستر به المرأة وجهها.



نَفسِي بمَشيئتِك... لقد نبَتْ[1] أعَاصِيرُ[2] الأطبَّاءِ ومسَاحيقُهم، وبَاطلاً ضاعَتْ تَعازِيمُ[3] الكُهّانِ والعَرَّافينَ، ولم يَبقَ لي غيرُ اسمِكِ المُقدَّسِ عَونًا ومُساعِداً، فاستَجيبي تَضرُّعاتي، وانظُري انسِحاقَ قلبي وتَوجُّعَ عَواطِفي، وأبقِي شَطر نفسِي[4] حَيًّا بجَانبي، لنَفرَحَ بأسرارِ محَبَّتكِ ونَسعَدَ بجَمالِ الشبيبةِ المُعلِنةِ خَفَايا مجدِكِ.

من هذه الأعماقِ أصرُخُ إليكِ يا عَشتروتُ المقدَّسةُ. مِن وراءِ ظُلمةِ هذا الليل أَستجيرُ[5] بحَنانِكِ. فاسمَعِيني أنا عبدُك ناثانُ ابنُ الكاهنِ حيرامَ الذي وَقفَ عُمرَه على خِدمةِ مَذْبَحِك: قد أحببتُ صَبيَّةً من بين الصَبايا وَاتَّخَذْتُها رفيقةً فحَسدَتْنا عرائسُ الجَانِ[6] ونفَثْنَ[7] في جسَدِها اللطيفِ لُهاثَ عِلَّةٍ غَريبةٍ، ثم بَعَثْنَ رسولَ المَنايا ليقودَها إلى

---

(١) نَبَتْ: من فعل نَبَا. ونَبَا السيف عن مضروبه أي لم يُصِبْهُ.

(٢) أعاصير. ج إعصار. والإعصار: ريحٌ تهبُّ بشدّةٍ وترتفع بالغبار كالعمود. وهذه اللفظة غير مناسبة هنا لسياق الكلام.

(٣) مصدر عزَّم: والصحيح عزائم جمع عزيمة أي رقية.

(٤) شطرنفسي: حبيبتي.

(٥) أستجير: أستنجد، أستغيث.

(٦) كانت العرب في الجاهلية تقول إن الجنية إذا تعشقت فتى من الإنس منعته من الزواج، وإن فعل سحرت عروسته أو أماتتها. وهذه الاعتقادات الشعرية ما برحت حية في بعض قرى لبنان.

(٧) تَفَثْنَ: نَفَخْنَ.

مغَاوِرِهنَّ السِحريَّة، وهـو هـو الآنَ رابـضٌ بقُـربِ مَـضجَعِها، يُزَمْجِرُ كالنَمرِ الجَائِع، مُخيِّمًا علَيها بأجنِحَتِـه الـسَوداءِ، مَـادًّا مَقَابِـضَهُ[1] الخَـشِنَةَ ليَغتالَها من بينِ ضُلُوعي. من أجلِ ذلكَ جئتُ إليكِ مُتذَلِّلاً، فـارحَميني وَأَبقيها زهرةً لم تفرَحْ بَعدُ بجَمالِ صَيفِ الحياةِ، وطائرًا لم يُكمِلْ تَغريـدَةَ مَسَرَّتِهِ لمجيءِ فَجرِ الشَبيبةِ. أنقِذيها من بينِ أظفارِ المَوتِ فنبتهجَ بأغـاني مَدائحِكِ، مُقَدِّمينَ المَحروقاتِ[2] لَمجدِ اسمِكِ، نـاحِرينَ الـضَحايا عـلى مَـذبحِكِ، مـالئين بـالخَمرِ القَديمَـةِ والزيـتِ المطيَّـبِ آنيـةَ خَزَائِنـكِ، فَارِشِينَ بالوُرودِ واليَاسَمِينَ رُواقَ[3] هَيكَلِكِ، مُحـرِقِينَ البَخُـورَ والعُـودَ الذَكيَّ الرائحةِ أمَامَ تِمثالِكِ. خَلِّصينا يا ربَّـةَ المُعجزاتِ ودَعِـي المَحبَّـةَ تَغلِبُ المَوتَ، فأنتِ ربّةُ المَوتِ والمَحبّةِ.

وسكتَ دقيقةً كانت فيها لوعتُهُ تَسيلُ دُموعاً وتتصَاعَدُ تَنهُّدًا. ثـمّ عادَ فقالَ: «أوَّاهِ! لقد تَضَعضَعَتْ أحلامِي يا عشتروتُ المُقدَّسةُ وذابَتْ حُشَاشَتِي[4] وماتَ قَلبي في دَاخِلي والتهبَتْ دُموعي في عَينـي، فـأَحيِيني

(١) مقابض: جمع مِقبض وهو ما يُقبض عليه بجمع الكفّ. والأصح: مخالب.
(٢) المحروقات: القرابين. ما يُتقرَّبُ به إلى الآلهة تبرُّكًا واستدرارًا للنِعم والخير.
(٣) رواق الهيكل: مقدَّمه.
(٤) الحشاشة: بقيَّة الروح في المريض.

بالرأفةِ وأبقِي لي حَبيبتي». ودخلَ إذ ذاكَ عَبدٌ من عَبيدِهِ واقتربَ منهُ ببُطءٍ وهَمَسَ في أُذُنِهِ هذه الكلماتِ: «لقد فتَحَتْ عينَيها يا سَيِّدي ونظرَتْ حولَ مضجَعِها فلم ترَكَ ثُمَّ نادَتْكَ بلَجاجةٍ[1] فجئتُ لأدعُوَكَ إليها».

فقام ناثانُ ومشَى مُسرعًا والعبدُ يَتْبعُهُ، ولما بلَغَ صَرْحَهُ[2] دخلَ حُجرةَ العَليلةِ وانحَنَى فوقَ سَريرِها آخِذًا يدَها النَحيلةَ بين يَدَيْهِ مُقَبِّلاً شفَتَيْها مِرارًا كأنّه يريدُ أن يَنفُخَ في جَسدِها السَقيمِ حَياةً جَديدةً من حَياتِهِ، فحوَّلَتْ نحوَه وَجهَها الغَارقَ بين المَسانِدِ الحَريريَّةِ وفتحَتْ أجفَانَها قَليلاً، وظهَرَ على شفَتَيْها خيالُ ابتسامةٍ هي بَقيَّةُ الحَياةِ في جَسدِها اللطيفِ، هيَ آخرُ أشعَّةٍ من نفسِها المُوَدِّعةِ، هي صَدَى نداءِ القَلبِ المُتَسارعِ نَحوَ الوُقوفِ. ثمّ قالت ومقَاطِعُ صَوتِها تُشابِهُ أنفاسَ طِفلِ الفَقيرةِ الجَائعِ:

قد نادَتْني الآلهةُ يا عريسَ نَفسِي، وجاءَ الموتُ ليَفصِلَني عَنكَ، فلا تَجزَعْ لأنَّ مشيئةَ الآلهةِ مُقدَّسةٌ ومطالب المَوتِ عَادِلَةٌ. أنا ذاهبةٌ الآنَ

---

(١) بلجاجة: بإلحاح.
(٢) صَرْحَه: قصرَهُ.

وكأسَا الحُبِّ والشَبيبةِ مابَرِحَتَا طافِحَتَيْنِ في أَيدِينا، ومسالكُ الحياةِ الجَميلةِ ما زالَتْ مُنبسطةً أمامَنا. أنا راحلةٌ يا حَبيبي إلى مسَارحِ الأرواحِ، وسوفَ أعودُ إلى هذا العَالَمِ لأنّ عَشتروتَ العَظيمةَ تُرجِعُ إلى هذهِ الحَياةِ أرواحَ المُحبِّينَ الذين ذهبُوا إلى الأَبديَّة قبلَ أن يَتَمَتَّعوا بمَلَذَّاتِ الحُبِّ وغِبطَةِ الشَبيبة[1]. سوفَ نَلتقي يا ناثانُ ونَشرَبُ مَعًا نَدَى الصباح من كُؤوسِ النَرجسِ ونفرَحُ مع عَصافِيرِ الحقَل بأشعَّةِ الشَمس. إلى اللقاءِ يا حبيبي.

وانخفَضَ صوتُها وبقيَتْ شَفَتاها تَرتَجِفَانِ مثلَ زَهرةٍ أقاح ذَابلةٍ أمام نُسَيْمَاتِ الفَجر، فضَمَّها حَبيبُها وبَلَّلَ عُنُقَها بالعَبَرات[2]. ولمَّا قرّبَ شَفتَيْه من ثَغرِهَا وجدَه بَارِدًا كالثَلج، فصرَخَ صُراخًا هَائِلاً ومَزَّقَ ثوبَه وارتَمَى على جُثّتها الهَامِدَة ورُوحُه المُتَوَجِّعَةُ تراوحُ بين لُجَجِ[3] الحياةِ وهَاويةِ المَوت.

في هُدوءِ ذلكَ الليلِ ارتجفَتْ أجفانُ الرَاقِدِينَ وجزَعَتْ نساءُ الحَيِّ

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك ما ورد فى القرآن الكريم في سورة البقرة: ٢٨: ﴿وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾. وكذلك ما جاء على لسان بوذا: «كنا بالأمس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة».

(٢) العَبَرات: الدموع.

(٣) لجج: جمع لُجَّة، وهي معظم البحر وتردّد أمواجه.

وذُعِرَتْ أرواحُ الأطفالِ إذ تبطَّنَتْ ملابسُ الدُجى بنُواحٍ مُوجِعٍ وبُكاءٍ مُرٍّ وعَويلٍ أليمٍ مُتَصَاعِدٍ من جَوانِبِ قصرِ كاهِنِ عَشتروتَ.

ولَمَّا جاءَ الصَباحُ طَلَبَ القومُ ناثانَ ليُعَزُّوهُ ويؤاسُوه في مُصيبتِهِ فلم يَجِدُوه.

وبعدَ أيّامٍ جاءَتْ قافلةٌ من المَشرِقِ أخبَرَ زعيمُها أنّه رأى ناثانَ تائِهًا في البَرِّيَّةِ هَائِمًا مع أسرَابِ[1] الغِزلانِ.

مرَّتِ الأجيالُ ساحقةً بأقدامِها الخَفيَّةِ أعمالَ الأجيالِ، وبَعُدَتِ الآلهةُ عن البِلادِ وحَلَّ مكانَها آلهةٌ غَضُوبٌ يَلَذُّ لها الهَدمُ ويُبهجُها التَخريبُ، فَدُكَّتْ[2] هَياكلُ مدينةِ الشَمسِ الفَخمَةِ وَتَقَوَّضَتْ[3] قُصورُها الجَميلةُ ويَبِسَتْ حَدائِقُها النَضِرةُ، وأجدَبَتْ حُقولُها[4] الخَصْبةُ، ولَم يبقَ في تلك البُقعةِ غيرُ طللٍ بالٍ يُعيدُ للذاكِرَةِ[5] أشباحَ الأمسِ فيُؤلِمُها، ويُرجعُ للنفسِ صدَى تهاليلِ المَجدِ القديمِ فيُحزنُها.

---

(١) أسراب: قِطعان.

(٢) دكَّ البناء: هدَمَهُ حتى سوّاه بالأرض.

(٣) قوَّض البناء: هدمه.

(٤) حدائقها النضرة: الحسنة الرونق والبهاء؛ أجدبَت حقولها: انقطع عنها المطر ويبست.

(٥) الأصحّ قوله: يُعيد إلى الذاكرة.

ولكنّ الأجيالَ التي تمرُّ وتسحقُ أعمالَ الإنسانِ لا تُفني أحلامَه، ولا تُضعِفُ عَواطِفَهُ.

فالأحلامُ والعواطفُ تَبقَى ببقاءِ الرُوح الكُلّي الخَالد، وقد تَتوَارَى حِينًا وتَهجَعُ[1] آونةً متشبِّهَةً بالشمسِ عندَ مجيءِ اللَيل وبالقَمرِ عندَ مَجيءِ الصبَاح.

## (٢)

## في ربيع سنة ١٨٩٠م لمجيء يسوع الناصري

توارَى النهارُ واضمَحَلَّ النورُ ولَمَّتِ الشمسُ وُشَاحَها عن سُهُولِ بَعلَبَكَّ فعادَ عَليٌّ الحُسيني[2] أمام قطيعِهِ نحوَ خرائبِ الهَيكل، وهناكَ جلسَ بينَ الأعمِدَةِ السَاقطةِ كأنّها أضلعُ جُنديٍّ متروكٍ مَزَّقَتْها الهَيْجَاءُ[3] وجرَّدَتْها العَناصِرُ، فربضَتْ أغنامُهُ حولَه مُستأمِنَةً[4] بأنغامِ شَبَّابَتِه.

---

(١) تهجع: تنام.
(٢) آل الحسيني: عائلة عربية لا تزال اليوم تسكن فى منطقة بلعبك في البقاع اللبناني.
(٣) الهيجاء: الحرب.
(٤) المقصود: إما مستأمنة إلى أنغام شبّابته؛ وإما مستأنسة بأنغام شبَّابته. والشبَّابة: نوع من المزمار وتسمِّيه العامّة: «منجيرة».

انتصفَ الليلُ، وألقَتِ السَماءُ بذُورَ الغَدِ في أعماقِ ظُلمتِه، فتَعِبَتْ أجفانُ عليّ من أشباحِ اليَقظةِ وكَلَّتْ عاقِلَتُهُ[1] من مُرورِ مَواكِبِ الأخيلَةِ السَائرَةِ بسَكينةٍ مُخيفَةٍ بين الجُدرانِ المَهدُومَةِ، فاتَّكَأ على زَنْدِهِ، واقترَبَ النعاسُ ولامَسَ حَواسَّه بأطرَافِ ثَنايا نِقابِهِ مثلَما يلامِسُ الضبابُ اللطيفُ وَجهَ البُحَيْرَةِ الهادِئةِ، فنسيَ ذاتَه المُقتبَسَةَ والتقى بذاته[2] المَعنويةِ الخَفيَّةِ المُفعَمَةِ بالأحلام، المُترَفِّعةِ عن شَرائعِ الإنسَانِ وتَعاليمِه، واتَّسَعَتْ دَوائرُ الرُؤيا أمامَ عَينَيهِ، وانبسَطَتْ له خَفَايا الأسرَارِ، فانفردَتْ نفسُه عن مَوكِبِ الزَمَنِ المُتَسَارعِ نحوَ اللاَّشَيءِ ووقفَتْ وَحدَها أمامَ الأفكارِ المُتناسِقَةِ والخَواطِرِ المُتسابِقَةِ، ولأوّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ عَرَفَ أو كادَ يَعرِفُ أسبابَ المَجاعَةِ الرُوحِيّةِ[3] المُلاحِقَةِ شَبيبتَهُ. تلك المجاعةِ التي تُوحِّدُ بين حَلاوةِ الحَياةِ ومَرارتِها، ذلك الظَمَأ الجَامِع بينَ تَأَوُّهِ الحَنينِ وسَكينةِ الاستِكفَاء، ذلك الشَوقِ الذي لا تُزيلُه أمجادُ العالَمِ ولا تُثنِيهِ[4] مَجاري العُمر.

لأوّلِ مَرّةٍ في حَياتِهِ شَعَرَ عليٌّ الحُسيني بعاطفةٍ غَريبةٍ أيقظَتْها

---

(١) عاقلته: قوته المدركة.

(٢) الأصح قوله: والتقى ذاته. وبذلك تصبح «الباء» زائدة.

(٣) المجاعة الروحية: هي التسمية التي يحلو لجبران أن يطلقها دائمًا على الحب.

(٤) تثنيه: تبعده عن عزمه.

خرائبُ الهَيكل. عَاطفةٍ رَقيقةٍ هي الذِكرى بمَنزلَةِ البَخُور من المَجَامِرِ. عَاطفةٍ سِحريّةٍ قدِ انعَكَفَتْ[1] علَى حَواسِّه انعكافَ أنامِلِ الموسيقيّ على صُفوفِ الأوتار. عاطفةٍ جَديدةٍ قد انبثَقَتْ من اللاَّشَيءِ، أو مِن كُلِّ شَيءٍ، ونمَتْ وتَدَرَّجَتْ حتّى عانَقَتْ كلِّيَّتهُ المَعنويةَ وملأتَ نفسَه بشغفٍ مُدنِفٍ[2] بلطفه، وتَوجُّعٍ مُستَعذَبٍ بمَرارتِهِ مَستَطيبٍ بقَساوَتِهِ. عاطفةٍ تولدَّتْ من خَلايا دَقيقةٍ وَاحدةٍ مُفعمَةٍ بالنُعاسِ، ومِن دقيقةٍ واحدةٍ تتولَّدَ رسومُ الأجيالِ مثلَما تتناسَلُ الأممُ من نُطفةٍ واحدة[3].

نظرَ عليٌّ نحوَ الهَيكلِ المَهدُومِ وقد تَبدَّلَ النعاسُ بيقظةٍ رُوحيَّةٍ فظهرَتْ بَقايَا المَذبحِ المُخدَّشَةِ واتَّضَحَتْ أماكنُ الأعمِدَةِ المُرتَمِيَةِ وأُسسُ الجُدرانِ المُتداعِيَةِ فجَمدتْ عَيناهُ وخفَقَ قلبُه، ومِثلَ ضريرٍ عادَ النورُ إلى عَينَيهِ فجأةً، فصارَ يرى ويفكِّرُ ويَتأمَّلُ. ومن تموُّجاتِ التَفَكُّرِ ودَوائِرِ التأمُّلِ تولَّدَتْ في نفسِه أشبَاحُ الذِكرى فتَذكَّر؛ تذكَّرَ تلكَ الأَعمِدةَ منتصبةً بفَخرٍ وعَظمةٍ. تذكَّرَ المَسارجَ والمباخِرَ الفِضيَّةَ المُحيطةَ

---

(١) انعكفت على حواسه: لزمَتْها.

(٢) بشغفٍ مُدنِفٍ: الشغف: الوله، ومدنف: من دَنَفَ المريضُ: ثَقُلَ مرضُه ودنا من الموت، وهنا بمعنى: شديد، قاتل.

(٣) نُطفة: ما يكوِّن الجنينَ في رَحِمِ المرأة.

بِتمثالِ معبُودَةٍ مُهَابَةٍ[1]. تذكَّر الكُهَّانَ الوَقُورِينَ يُقدِّمونَ الضَحَايا أمامَ مَذبحٍ مُصَفَّحٍ بالعَاجِ والذَهَب. تذكَّرَ الصَبايا الضاربَاتِ الدفوفَ والفتيانَ المُترنِّمينَ بمدائحِ ربَّةِ الحُبِّ والجمال.

تذكَّر ورَأى هذه الصورَ متَّضِحَةً لبَصيرتِهِ المُتكهربةِ وشَعَرَ بتأثيراتِ غَوامِضِها تُحرِّكُ سَواكِنَ أعماقِه. ولكنَّ الذِكرَى لا تعيدُ غيرَ أشباحِ الأجسام التي نَرَاها فيما غَبَرَ[2] من أعمارِنا، ولا يَرجِعُ إلى مسَامِعِنا إلا صدَى الأصواتِ التي وَعَتْها آذانُنا. فأيَّةُ علاقةٍ بينَ هذه التذكاراتِ السِحريةِ وماضِي حَياةِ فتىً وُلِدَ بين المَضاربِ[3] وصَرَفَ ربيعَ عُمرِه يَرعى قَطيعًا من الغَنَمِ في البَرية؟

قامَ عَليٌّ ومشَى بين الحِجَارةِ المُتَقوِّضَةِ وتَذكاراتُه البعيدةُ تُزيحُ أغشيةَ النسيانِ عن مُخيِّلتِهِ مثلَما تُزيلُ الصبيَّةُ نسيجَ العَنكبوتِ عن بلّورِ مِرآتِها. حتى إذا ما بَلَغَ صَدرَ الهَيكلِ وَقَفَ كأنَّ في الأرض جَاذِبًا يتمسَّكُ بقدَمَيه، فنظرَ وإذا به أمامَ تِمثالٍ مُهشَّم مُلقًى على الحَضيضِ، فركَعَ بجَانبِهِ عَلَى غيرِ هُدًى وعَواطِفُه تتدفَّقُ في أحشائِهِ مثلما يتسَارَعُ

(١) مُهابَة: ذات هيبة وجلال.

(٢) غَبَرَ: مضى.

(٣) المضارب: الخيام التي يسكنها العربُ الرُحَّلُ.

نزيفُ الدِماءِ من جوَانِب الكُلُوم البَليغةِ(1)، ونبضاتُ قلبِه تتكاثرُ وتَتَهَامَل(2) مثل أمواجِ البَحر المُتصاعِدَةِ المُنخَفضةِ، فخَشَعَ بصرُهُ وتأوَّهَ بمرارةٍ وبكَى بُكاءً أليمًا لأنه شعرَ بوَحدةٍ جارِحَةٍ وبُعَادٍ مُتْلِفٍ(3) فاصِلٍ بينَ روحِه وروحٍ جَميلةٍ كانت بقُربِهِ قبلَ مجيئِهِ إلى هذهِ الحَياةِ.

شعَر بأن جوهرَ نفسِه لم يكن غيرَ شَطرٍ من شُعلةٍ مُتَّقدةٍ فصَلَها الله عن ذاتِه قُبيلَ انقضَاءِ الدَهر.

شعَر بحفيفِ أجنحَةٍ لَطيفةٍ تُرفرِفُ بين أضلُعِهِ المُلتهبَةِ وحَول لفائفِ دِمَاغِهِ المُنحَلَّة.

شعرَ بالحبِّ القويِّ العظيم يَشملُ قلبَه ويَمتَلِكُ أنفاسَه، ذلك الحبِّ الذي يُبيحُ(4) مكنوناتِ النفسِ للنفسِ ويفصِلُ بتَفَاعِيلهِ بينَ العقلِ وعالَمِ المَقاييسِ والكمِّيةِ؛ ذلكَ الحبِّ الذي نسمَعُه متكلِّمًا عندَما تَخرُسُ ألسنةُ الحياةِ، ونراهُ مُنتصِبًا كعَمُودِ النُور عندَما تَحجُبُ الظُلمةُ كُلَّ الأشياءِ؛ ذلك الحُبِّ، ذلك الإلهِ قد هَبَطَ في تلكَ الساعةِ الهَادِئَةِ

(1) الكلوم البليغة: الجراح العميقة.
(2) تعبير غريب. وقد يكون المعنى: تتوالى.
(3) مُتلفٍ: مُضنٍ، مُهلكٍ.
(4) يُبيحُ: يُفصح، يُظهر.

على نفس عَليٍّ الحُسَينيّ وأيقظَ فيها عواطفَ حُلوةً ومُرّةً مثلما تستنبتُ الشمسُ الزهورَ بجانبِ الأشوَاكِ.

ولكنْ ما هذا الحُبُّ؟ ومن أينَ أتى؟ ومَاذا يريدُ من فتىً رابضٍ مع قَطيعِهِ بين تلكَ الهيَاكلِ الرمَيمَةِ[1]؟ ما هذه الخَمرةُ السائلةُ في كَبدٍ لم تُحرِّكْها قطُّ لواحظُ[2] الصَبايا؟ وما هذه الأغنيةُ السَماويَّةُ المتموِّجَةُ في مسَامعِ بَدَويٍّ لم يُطربْهُ بعدُ شَدوُ النِساء[3]؟

ما هذا الحبُّ؟ ومن أينَ أتى؟ وماذا يريدُ من عَليٍّ المَشغولِ عن العالَمِ بأغنَامِهِ وشَبَّابَتِهِ؟ هل هي نَواةٌ ألقَتْها محَاسِنُ بَدويّةٍ بين أعشارِ قَلبِهِ على غير مَعرفةٍ من حَواسِّهِ؟ أم هُو شعاعٌ كان مُحتَجِبًا بالضَبابِ وقد ظهَرَ الآن لِيُنيرَ خَلايا نَفسِه؟ هل هو حُلمٌ سَعَى في سَكينةِ الليلِ ليَسخَرَ بعَوَاطِفِه؟ أم هي حَقيقةٌ كانت منذُ الأزلِ وسَتبقَى إلى آخرِ الدَهر؟

أغمضَ عَليٌّ أجفَانهُ المُغَلَّفَةَ بالدُموعِ ومَدَّ يدَيْه كالمُتسوِّلِ[4] المُستَعطِفِ وارتعَشَتْ روحُه في داخِلِهِ ومن ارتعاشَاتِها المُتواصِلَةِ

---

(١) رابض: قاعد، بارِكٌ؛ الرميمة: الخَرِبَة.

(٢) كان من الأصوب قوله: ألحاظ، بدل: لواحظ. لأنّ المفرد لَحْظ والجمع لِحَاظ وألحاظ.

(٣) شدو النساء: غناؤهنَّ.

(٤) المتسوِّل: المستعطي (الشحَّاذ).

انبثَقَتِ الزَفَراتُ المُتقطِّعةُ المُؤلِّفةُ بينَ تذلُّل الشَكوى وحُرقَةِ الشَوق، وبصَوتٍ لا يُميِّزُهُ عن التنهُّدِ غيرُ رنّاتِ الألفاظِ الضَعيفةِ هَتَفَ قائلاً:

«مَنْ أنتِ أيَّتُها القريبةُ من قلبي، البَعيدةُ عن نَاظري، الفاصِلةُ بيني وبيني، المُوثِقَةُ حاضِرى بأزمنةٍ بَعيدةٍ مَنْسِيَّةٍ؟ أَطَيْفُ حُوريّةٍ جاءَتْ من عَالَمِ الخُلودِ لتبيّنَ لي بُطل الحَياةِ وضُعفَ البَشرِ؟ أم رُوحُ مَليكةِ الجَانِ تصاعَدَتْ من شُقُوقِ الأرضِ لتَسترِقَ منّي عاقِلتي وتَجعَلَني سُخريَةً بين فِتيانِ عَشيرتي؟ مَن أنتِ؟ وما هذا الفتونُ المُميتُ المُحيي القابضُ على قَلبي؟ وما هذه المشاعرُ المَالِئَةُ جَوانِحِي نُورًا وناراً؟ ومَنْ أنا؟ وما هذه الذاتُ الجَديدةُ التي أدعُوها (أنا) وهي غَريبةٌ عَنِّي؟ هل تَجرّعْتُ ماءَ الحَياةِ مع دقَائقِ الأثيرِ فصِرتُ مَلاكًا أرى وأسمَعُ خَفَايا الأسرار؟ أم هي خَمْرُ وَساوْس سَكِرْتُ بها فتعامَيْتُ عن حَقائقِ المَعقولات»؟

وسَكتَ دقيقةً وقد نمَتْ عَواطفُهُ وتسامَتْ روحُه فقال: «يا مَنْ تبِينُها[1] النفسُ وتُدنِيها ويَحجُبُها الليلُ ويُقصِيها ـ أيتُها الروحُ الجَميلةُ الحَائمةُ في فَضاءِ أحلامي، قد أَيْقَظْتِ في بَاطني عواطفَ كانت نائمةً

(١) تبينها: تُبعِدُها من بانَ يبِينُ. وبانَ يبان: ظهر.

مثلَ بُذورِ الزُهـورِ المُختبئـةِ تحـتَ أطبـاقِ الـثَلج، ومَـررتِ كالنسيم الحَامِـلِ أنفَـاسَ الحُقـولِ ولا مَـسْتِ حَـواسِّي فـاهتزَّتْ واضـطرَبَتْ كأوراقِ الأشجَار! دَعِيني أراكِ إن كنتِ لابسةً من المَادَّةِ ثَوباً. أو مُري النومَ أن يُغمِضَ أجفَاني فأراكِ بالمَنام إن كنتِ مَعتوقَة[1] مـن الـتُراب. دعيني ألمسُكِ. أَسمِعيني صَوتَك، مَزِّقي هذا النِقابَ الحَاجِـبَ كُلِّيَّتـي وَاهدِمي هذا البناءَ السَاتِرَ ألوهيَّتي، وَهَبيني جَناحًـا فـأطيرَ وَراءَكَ إلى مَسَارحِ المَلإِ الأَعلى إن كنتِ من سُـكَّانها، أو لامِـسِي عَينـيَّ بالـسِحرِ فأَتبَعَكِ إلى مَكامِنِ الجَانِ إن كُنتِ من عَرائِـسِها. ضَـعي يـدَكِ الخفيَّـةَ على قَلبي وامتَلِكيني إن كُنتُ حريًّا باتّباعك».

كان عَليٌّ يهمِسُ في آذان الـدُجى كَلِمَاتِـهِ المُتناسِـخَة[2] عـن صـدًى نَغمةٍ مُتمايلةٍ في أعمَاقِ صَدرِهِ وبينَ ناظِره ومُحيطِهِ تَتْـسَلُّ أشـباحُ الليـلِ كأنها أبخِرةٌ مُتولِّدةٌ من مَدامِعِه السَخينةِ، وعلى جُدرانِ الهَياكِلِ تتمثّـلُ له صُورٌ سِحريّةٌ بألوانِ قَوسِ قُزحٍ.

كَذَا مرّتْ ساعةٌ وهو فَرِحٌ بدُموعِهِ، مُغتَبِطٌ بلَوعتِهِ، سَامِعٌ نَبـضاتِ قَلبِهِ، ناظرٌ إلى ما وراءَ الأشياءِ كأنَّه يرَى رسُـومَ هـذه الحيـاةِ تـضمَحِلُّ

---

(١) معتوقة: متحرِّرة.

(٢) المتناسخة: المتنقلة من... إلى... من تناسخ أي تتابع وتداول. والتناسُخ: انتقـال الـنفس الناطقـة من بَدَنٍ إلى بَدَنٍ آخر ويُعرف بالتقمُّص.

ببُطءٍ ويَحُلُّ مكانَها حُلمٌ غريبٌ بمحَاسِنِهِ هائلٌ بهواجِسِهِ. ومِثلَ نَبيٍّ يتأمَّلُ نجومَ السَماءِ مُتَرَقِّبًا هُبوطَ الوَحي صَارَ يَنتظِرُ مآتي الدقائقِ، وتَنهيداتُهُ المُسرِعَةُ تُوقِفُ أنفاسَه الهَادئةَ، ونفسُه تترُكُه وتسبَحُ حولَه ثم تعودُ إليه كأنّها تبحَثُ بين تلكَ الخَرائبِ عن ضَائعٍ عَزيزٍ.

لاح الفجرُ وارتجَفَتِ السَكينةُ لمُرورِ نُسَيْماتِهِ وسَال النورُ البَنَفْسَجيُّ بينَ دقائقِ الأثِيرِ، وابتسَمَ الفضاءُ ابتسامةَ نائِمٍ لاحَ له في الحُلم طيفُ حَبيبتِهِ، فظهَرَتِ العَصافيرُ من شُقوقِ جُدرانِ الخَرائِبِ، وصارَتْ تَنتقِلُ بين تلكَ الأعمِدَةِ وتترنَّمُ وتتناجَى مُتنبِّئةً بمَآتي النَهارِ. فانتصَبَ عَليٌّ واضِعًا يَدَهُ على جَبهتِهِ المُلتَهِبَةِ ونظرَ حَولَه بطَرْفٍ جَامدٍ، ومثلَ آدمَ عندَما فتحَتْ عينَيه نفخةُ الله صار ينظرُ مُستَغرِبًا كلَّ ما يَراه. ثمّ اقتربَ من نِعاجِهِ ونَادَاها فقامَتْ وانتفَضَتْ ومشَتْ وراءَه بهدُوءٍ نحوَ المُروج الخَضْراء. سَار عليٌّ أمامَ قَطيعِهِ وعيناه الكَبيرتَانِ مُحَدّقتانِ إلى الفَضَاءِ الصَافي وعواطِفُهُ المُنصَرِفَةُ عن المَحسُوساتِ تُبيّنُ له غَوامضَ الوجُودِ ومُستَتِرَاتِهِ وتُريهِ ما غَبرَ من الأجيالِ وما بَقِيَ منها بلَمحةٍ واحِدة، وبلمحَةٍ وَاحدةٍ تُنسِيه كلَّ ذلك وتُعيدُ إليه الشوقَ والحَنينَ، فيجدُ ذاتَه مُنحَجِبًا[1] عن رُوحِ رُوحِهِ انحجابَ العينِ عَنِ النُور، فيَتَنَهَّدُ ومع كلّ تَنهيدةٍ تنسلخُ شُعلةٌ من

(١) منحجبًا: مستترًا.

فؤادِهِ المُتَّقِدِ[1].

بلغَ الجدولَ المُذيعَ بخَريرِه سَرائِرَ الحُقُولِ فجَلَسَ على ضِفَّتِهِ تحتَ أغصَانِ الصَفصَافِ المُتدلِّيَةِ إلى المِياهِ كأنَّها تروم[2] امتصاصَ عُذُوبتِها، وانثنَت[3] نعاجُه تَرتَعي الأعشابَ ونَدَى الصَباحِ يتلمَّعُ على بَياضِ صُوفِها. ولم تمُرَّ دقيقةٌ حتى شَعَرَ بتسارُعِ نبضَاتِ قلبِه وتضاعُفِ اهتزازاتِ رُوحِه، ومثلَ راقِدٍ أجفلَتْه[4] أشعَّةُ الشمسِ تحرّكَ وتلفّتَ حَولَه فرأى صَبيَّةً قد ظهرَتْ من بينِ الأشجارِ تحمِلُ جَرّةً على كَتِفِها وتتقدَّمُ على مَهلٍ نحوَ الغَديرِ وقد بَلَّلَ النَّدَى قدمَيْها العَارِيتَين.

ولما بلغَتْ حافَّةَ الجَدولِ وانحنَتْ لتملأَ جَرَّتَها التفتَتْ نحوَ الحَافةِ المُقابلةِ فالتقَتْ عيناها بعينَيْ عليٍّ فشهقَتْ ورمَتْ بالجَرَّةِ ثم تراجَعَتْ قليلاً إلى الوَرَاءِ وشخَصَتْ به شُخُوصَ ضَائعٍ وَجَدَ مَنْ يَعرِفُهُ...

مّرت دَقيقةٌ كانت ثَوانيها مثلَ مَصابيحَ تَهدِي قَلبَيْهِما إلى قَلبَيْهِما مُبتدِعةً من السَكينةِ أنغَامًا غَريبةً تُعيدُ إلى نفسَيْهِما صَدَى تَذكاراتٍ مُبهَمةٍ وتُبيِّنُ الواحدَ منهُما للآخَرِ في غَيرِ ذلكَ المَكانِ مُحاطًا بصُوَرٍ

---

(١) المتَّقد: المشتعل، الملتهب.
(٢) تروم: من رام يروم: تطلب، تريد.
(٣) انثنَتْ: مالَتْ.
(٤) أجفلَتْهُ: نفَّرَتْهُ فشردَ وهربَ.

وأشباحٍ بَعيدةٍ عن ذلكَ الجَدولِ وتلكَ الأشجار، فكان كُلٌّ منهُما ينظرُ إلى الآخرِ نِظرةَ الاستِعطاف ويَتَفَرَّسُ فيه مُستلطِفًا مَلامِحَهُ[1] مُصغِيًا لتنهُّداتِهِ بكُلِّ ما في عواطِفِهِ من المَسَامِعِ، مُناجيًا إيّاهُ بكُلِّ ما في نفسِهِ من الأَلسِنةِ، حتى إذا ما تَمَّ التفاهُمُ وتَكامَلَ التعارُفُ بين الرُوحَيْنِ عَبَرَ عليٌّ الجَدولَ مجذُوبًا بقوّةٍ خفيّةٍ واقتَرَبَ من الصَبيّةِ وعانَقَها وقبّلَ شَفَتَيْها وقَبَّلَ عُنُقَها وقَبَّلَ عَينَيها فلم تُبدِ حِراكًا بينَ ذِراعَيْه كأنّ لذةَ العِناقِ قدِ انتزعَتْ منها إرادَتَها، ورِقَّةَ الملامَسةِ قد أخذَتْ منها قُواها، فاستَسْلمَتْ استِسْلامَ أنفاسِ اليَاسَمينِ لتموُّجَاتِ الهَوَاء، وألقَتْ رأسَها على صَدرِهِ كمُتعَبٍ وَجَدَ رَاحةً، وتنهَّدَتْ تَنهدةً عَميقةً تُشيرُ إلى حُدُوثِ انبساطٍ في فُؤادٍ مُنقَبِضٍ وتُعلِنُ ثَورَاتِ جَوَانِحَ كانَت راقِدَةً فأفاقَتْ، ثمّ رفعَتْ رأسَها ونظَرَتْ إلى عيْنَيه نَظرةَ مَنْ يَستَصغِرُ الكَلامَ المُتعارَفَ بينَ البَشَرِ بجَانِبِ السَكينة ـ لغةِ الأروَاحِ ـ نَظرةَ مَنْ لا يرضى بأن يكونَ الحُبُّ رُوحًا في أجسَادٍ مِنَ الألفَاظ.

مشَى الحَبيبانِ بَينَ أشجارِ الصَفصَافِ ووَحدانيّةُ كلَيْهما لسانٌ ناطقٌ بتوحِيدهما، ومَسمَعٌ مُنصِتٌ لوَحيِ المَحبّة، وعَينٌ مُبصِرَةٌ مجدَ السعادةِ، تَتْبَعُهُما الخِرافُ مُرتعيةً رؤوسَ الأعشابِ والزُهورِ، وتُقابِلُهما العصافيرُ من كلّ ناحيةٍ مرتّلةً أغانيَ السِحر!

(١) يتفرَّسُ فيه: ينظر ويثبّتُ نظرَه فيه؛ مستلطفاً: بمعنى مستنطقاً.

ولما بلغا طَرَفَ الوَادي، وكانَتِ الشمسُ قد طَلَعَتْ وألقَتْ على تلك الرَوابي رِداءً مُذهَّباً، جلسَا بقربِ صَخرةٍ يحتَمِي البنفسجُ بظِلِّها. وبعدَ هُنيهةٍ نظرَتِ الصبيّةُ في سَوادِ عَيْنَيْ عليٍّ وقد تلاعَبَ النسيمُ بشَعرِها كأنَّ النسيمَ شِفاهٌ خفيّةٌ ترومُ تقَبيلَها، وشَعَرَتْ بأناملَ سِحريّةٍ تُداعِبُ لِسَانَهَا وشَفَتَيْها رُغمَ إرَادتِها، فقالَتْ وفي صَوتِها حلاوةٌ جَارِحَة:

قد أعادَتْ عشتروتُ رُوحَيْنَا إلى هذه الحياةِ كيلا نُحرَمَ ملذاتِ الحُبِّ، ومجدَ الشبيبةِ يا حَبيبي!

فأغمَضَ عليٌّ أجفانَهُ وقدِ استحضَرَتْ مُوسيقى كلماتِها رسُومَ حُلمٍ طالما رَآه في نَومه، وشعَرَ بأجنحَةٍ غَيرِ مَنظُورَةٍ قد حمَلَتْهُ من ذلك المَكانِ وأوقَفَتْهُ في حُجرةٍ غريبةِ الشَكلِ بجانِبِ سَريرٍ مُلقًى عليه جُثمانُ امرأةٍ جَميلةٍ أخَذَ الموتُ بهاءَها وحَرارةَ شفتَيْها، فصرَخَ مُلتاعًا من هَولِ المَشهدِ ثُمَّ فتَحَ أجفانَه فوَجَدَ تلكَ الصبيّةَ جالسةً بجانِبِهِ وعلى شفَتَيْها ابتسامةُ محبّةٍ وفي لَحَظِها[1] أشعَّةُ الحياةِ، فأشرَقَ وجهُه وانتعشَتْ روحُه وتضعضَعَتْ أخيلةُ رؤيَاهُ ونسِيَ المَاضِي ومآتيه...

تعانَقَ الحَبيبانِ وشَرِبَا مِن خمرةِ القُبَلِ حتى سَكِرا ونام كُلٌّ منهُما مُلتَفًا بذراعَي الآخرِ إلى أنَ مالَ الظِلُّ وأيقظَتْهُما حرارةُ الشمس.

---

(١) الصحيح: لحاظها جمع لَحْظ أي باطن العين.

# مرتا البانية[1]

## (١)

ماتَ والدُها وهيَ في المَهدِ[2]، وماتَتْ أُمُّها قبلَ بُلوغِها العَاشِرَة، فتُرِكَتْ يتيمةً في بيت جَارٍ فَقيرٍ يعيشُ مع رَفيقَتِهِ وصِغَارِه من بُذُورِ الأرضِ وثِمارِها في تلكَ المزرعةِ المُنفرِدَةِ بين أوديةِ لبنانَ الجميلةِ.

مات والدُها ولم يُورِثْها غيرَ اسمِه وكوخٍ حَقيرٍ قَائِمٍ بين أشجارِ الجَوزِ والحَور، وماتَتْ أمُّها ولم تترُكْ لها سِوى دُمُوعِ الأسى وذُلِّ التيتُّم، فباتَتْ غريبةً في أرضِ مَولِدِها، وَحِيدَةً بين تلكَ الصُخُورِ العَاليةِ والأشجارِ المُحتبِكَةِ، وكانَتْ تَسيرُ في كُلِّ صَباحٍ عَاريةَ القَدَمَيْن رَثَّةَ الثَوبِ وراءَ بَقَرةٍ حَلُوبٍ إلى طَرَفِ الوادِي حيثُ المَرعى الخَصِيبُ، وتَجلِسُ بظِلِّ[3] الأغصانِ مُتَرَنِّمةً مع العَصَافِيرِ، باكيةً مع الجَداوِلِ، حَاسِدَةً البقرةَ على وَفرةِ المَآكِلِ، مُتأمِّلَةً بنُمُوِّ الزُهورِ

---

(١) نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لُبنان.

(٢) المهد: سرير الطفولة.

(٣) كان من الأفضل والأصحّ قوله: تجلس في ظِلِّ الأغصان.

ورَفرفَةِ الفَراشِ. وعندَما تغيبُ الشمسُ ويُضنِيها[1] الجُوعُ تَرجِعُ نحوَ ذلك الكُوخِ وتجلِسُ مع صَبيَّةٍ وَليِّها مُلتَهِمَةً خبزَ الذرةِ مع قليلٍ من الثِّمارِ المُجفَّفَةِ والبُقُولِ المَغموسَةِ بالخَلِّ والزَيتِ، ثمّ تَفترِشُ القَشَّ اليَابسَ مُسنِدَةً رأسَها بسَاعِدَيْها وتنامُ مُتنهِّدَةً مُتمنِّيةً لو كانتِ الحَياةُ كلُّها نومًا عَميقًا لا تَقطَعُهُ الأحلامُ ولا تَليه اليقظةُ. وعندَ مجيءِ الفَجرِ ينتَهِرُهَا[2] وَليُّها لقَضاءِ حَاجةٍ فتَهُبُّ من رُقادِهَا مُرتَعِدةً خائِفَةً من سُخطِهِ وتعَنيفِهِ.

كذا مرَّتِ الأعوامُ على مَرتا المِسكينةِ بين تلكَ الرَوابي والأوديةِ البَعيدةِ فكانَتْ تنمُو بنُمُوِّ الأنصابِ[3] وتتولَّدُ في قَلبِها العواطفُ على غَيرِ مَعرفةٍ منها مثلَما يتولَّدُ العِطرُ في أعماقِ الزَهرة، وتَنتابُها الأحلامُ والهَواجِسُ مثلَما تتناوَبُ القُطعانُ مَجارِيَ المِياهِ، فصارَتْ صَبيَّةً ذاتَ فِكرةٍ تُشابِهُ تربةً جَيِّدَةً عذراءَ لم تُلقِ بها المَعرِفةُ بذورًا ولا مَشَتْ عَليها أقدامُ الاختبارِ، وذاتَ نفسٍ كبيرةٍ طَاهِرةٍ مَنفيّةٍ بحُكمِ القَدَرِ إلى تلكَ المَزرعةِ حَيثُ تتقلَّبُ الحياةُ مع فُصُولِ السَنةِ كأنها ظِلُّ إلهٍ غيرِ مَعروفٍ جَالِسٍ بينَ الأرضِ والشَمس.

---

(١) يُضنيها: يُتعبها، يُفقِدُها قُواها.

(٢) ينتهرها: يزجرها، يطلبُ منها بصوتٍ جافٍّ غليظ.

(٣) الأنصاب: ما يُنصب من الشجر، أي ما يُغرسُ في الأرض ليصبح شجرًا مُثمراً.

نحنُ الذين صَرَفُوا معظمَ العُمرِ في المُدُنِ الآهِلَةِ نكادُ لا نَعرفُ شَيئًا عن مَعيشَةِ سُكَّانِ القُرَى والمَزارعِ المُنزَويَةِ في لبنانَ، قَد سِرْنا مع تَيَّارِ المَدنيّةِ الحَديثةِ حتَّى نَسِينا أو تناسَيْنا فلسفةَ تلكَ الحياةِ التي إذا ما تأمَّلْناها وجَدْنَاها مُبتسِمةً في الرَّبيع، مُثقَلةً[1] في الصَيف، مُستَغَلَّةً في الخَريف، مُرتاحَةً في الشِتاءِ، مُتشبِّهَةً بأمِّنا الطَبيعةِ في كُلِّ أدوارِها. نحنُ أكثرُ من القَرويِّين مَالاً وهُم أشرفُ مِنَّا نُفُوساً. نحنُ نزرعُ كَثيرًا ولا نَحصُدُ شَيئاً، أمّا هُم فيحصُدون ما يَزرَعُون. نحنُ عبيدُ مَطامِعِنا وهُم أبناءُ قنَاعَتِهم. نحنُ نشرَبُ كأسَ الحَياةِ ممزوجَةً بمَرارةِ اليَأسِ والخَوفِ والمَلَلِ، وهُم يرتَشِفُونَها صَافِيَةً.

بلغَتْ مَرتا السادسةَ عشَرةَ وصارَتْ نفسُها مثلَ مرآةٍ صَقيلةٍ تَعكِسُ محَاسِنَ الحُقولِ، وقلبُها شَبيهًا بخلايا[2] الوَادي يُرجِّعُ صَدَى كُلِّ الأَصوَاتِ... ففي يومٍ من أيامِ الخَريفِ المَملوءَة بتَأَوُّهِ الطبيعةِ جلسَتْ بقُربِ العَينِ المُنعتِقَةِ[3] من أَسرِ الأرضِ انعتاقَ الأفكارِ من مُخيِّلَةِ الشَاعِرِ، تتأمَّلُ باضطِرابِ أوراقَ الأشجارِ المُصفرَّةِ وتلاعُبَ الهَواءِ بها مثلَما يتلاعَبُ المَوتُ بأرواحِ البَشر، ثمّ تنظرُ نحوَ الزُهورِ فترَاها قد ذَبُلَتْ

(١) المقصود: مُثقَلَةً بالثمار. وكان من الأفضل إضافة هذه الكلمة.

(٢) المقصود: الخلاء والفراغ. والكلمة المستعمَلَة لا تؤدي المعنى المطلوب.

(٣) المنعتقة: المتحرِّرة.

ويَبِسَتْ قلوبُها حتى تشقّقَتْ وأصبحَتْ تَستودِعُ الترابَ بُذورَها مثلما تَفعَلُ النِساء بالجَواهِرِ والحِلَى أيّامَ الثَوراتِ والحُروب.

وبينَما هي تنظرُ إلى الزُهورِ والأشجّار، وتَشعُرُ معَها بألمِ فراَقِ الصَيفِ، سَمِعَتْ وَقْعَ حَوافِرَ على حَصباءِ الوَادي، فالتفتَتْ وإذا بفَارسٍ يتقدَّمُ نحوَها ببُطءٍ، ولمَّا اقترَبَ منَ العَينِ وقد دلَّتْ ملامِحُه ومَلابسُه على تَرَفٍ وكياسَةٍ، تَرجَّلَ عن ظَهر جَوادِهِ وحَيَّاهَا بلُطفٍ ما تَعَوَّدَتْهُ من رَجُلٍ قَطُّ، ثمّ سألها قائلاً: «قد تِهْتِ عن الطريقِ المُؤدِّيةِ إلى السَاحِلِ، فهل لكَ أن تَهديَني أيتُها الفَتاة»؟ فأجابَتْ وقد وَقَفَتْ مُنتصِبةً كالغُصنِ على حَافَّةِ العَين: «لستُ أدري يا سَيِّدي ولكنِّي أذهبُ وأسألُ وَليِّي فهُو يَعلَم». قالت هذه الكلمات بوَجَلٍ ظَاهرٍ[1] وقد أكسَبَها الحَياءُ جَمالاً ورِقّة. وإذ هَمَّتْ بالذهابِ أوقَفَها الرجُلُ وقد سَرَتْ في عُروقِهِ خَمرةُ الشَبيبةِ وتغيَّرتْ نَظراتُه وقال: «لا، لا تَذهبي». فوقَفَتْ في مكانِها مُستغرِبَةً شاعِرَةً بوُجودِ قُوةٍ في صَوتِهِ تَمنعُها عن الحِراكِ. ولمَّا اختلسَتْ منَ الحَياءِ نَظرةً إليه رَأتْه يَتأمَّلُها باهتمَامٍ لم تَفْقَهْ[2] له مَعْنًى، وَيبتسمُ لها بلُطفٍ سِحريٍّ يكادُ يُبكِيها لعُذوبَتِهِ، وينظرُ بمَوَدَّةٍ

(١) بوَجَلٍ ظاهر: بخوفٍ ظاهر.

(٢) لم تَفْقَهْ: لم تدرك.

ومَيلٍ إلى قدمَيْها العَارِيَتَيْنِ ومِعْصَمَيْها[1] الجَميلَيْنِ وعُنُقِها الأملسِ وشعرِها الكَثيفِ النّاعِمِ، ويتأمَّلُ بافتتانٍ وشَغَفٍ كيفَ قَد لوَّحَتِ الشمسُ بَشَرَتَها وقَوَّتِ الطبيعةُ ساعِدَيْها. أمّا هي فكانَتْ مُطرِقَةً خَجَلاً لا تُريدُ الانصِرافَ ولا تَقوَى على الكَلامِ لأسبابٍ لا تُدرِكُها.

في ذلكَ المساءِ رَجَعَتِ البقرةُ الحَلُوبُ وحدَها إلى الحَظيرة، أمّا مَرتا فلم تَرجِعْ. ولما عادَ وَليُّها منَ الحَقلِ بَحَثَ عَنها بينَ تلكَ الوِهادِ[2] ولم يَجِدْها، فكانَ يُناديها باسمِها ولا تُجيبُهُ غَيرُ الكُهوفِ وتأوُّهاتِ الهَواء بينَ الأشجارِ.

فرجَعَ مُكتئِبًا إلى كُوخِهِ وأخبرَ زوجتَه فبَكَتْ بسكينةٍ طولَ[3] ذلكَ الليلِ وكانَتْ تقولُ في سِرِّها: رأيتُها مَرَّةً في الحُلمِ بينَ أظافرِ وَحشٍ كاسرٍ يُمزِّقُ جسدَها وهي تبتسِمُ وتَبكي.

هذا إجمالُ ما عرفتُه عن حَياةِ مَرتا في تلكَ المَزرعةِ الجَميلةِ، وقد تخبَّرتُه من شَيخٍ قرويٍّ عَرَفَها مُذ كانت طِفلةً حتى شَبَّتْ واختَفَتْ من تلك الأمَاكنِ غيرَ تاركةٍ خَلفَها سِوى دُموعٍ قَليلةٍ في عَيني امرأةٍ

(١) معصمَيْها: مثنى المعصم وهو مكانُ السوار من اليد.
(٢) الوِهاد: جمع الوَهدة: الأرض المنخفضة.
(٣) المقصود: بصمتٍ طوالَ ذلك الليلِ.

وَليِّها، وذِكرى رَقيقـةٍ مُـؤثِّرةٍ تـسيلُ مـع نُـسَيماتِ الـصَباحِ في ذلـك الوَادي، ثمَ تَضمَحِلُّ كأنّها لُهاثُ طفلٍ على بِلّورِ النَافذةِ.

٢

جاء خريفُ سـنةِ ١٩٠٠م فعـدتُ إلى بـيروتَ بعـدَ أن صَرَفْـتُ العُطلةَ المدرسيّةَ في شَمالِ لبنـانَ، وقبـلَ دخُـولي إلى المَدرسـةِ قـضيتُ أُسبوعًا كامِلاً أتجوَّلُ مع أترابى[١] في المَدينةِ مُتمتِّعينَ بغِبطةِ الحُريةِ التي تَعشَقُها الشَبيبةُ وتُحرَمُها في مَنازِلِ الأهلِ وبينَ جُدرانِ المَدرسةِ، فكُنّـا أشبهَ بعَصَافِيرَ رأَتْ أبوابَ الأقفاصِ مَفتوحةً أمامَها فـصارَتْ تُـشْبعُ القلبَ من لَذّةِ التَنقُّلِ وغِبطَةِ التَغريدِ. والـشبيبةُ حُلـمٌ جَميـلٌ تَـسترقُ عُذوبتَه مُعَمَّيَاتُ[٢] الكُتُبِ وتجعَلُهُ يَقظةً قاسيةً. فهل يَجيءُ يومٌ تُـصبحُ فيه الطبيعةُ مُعَلمَةَ ابنِ آدمَ، والأنسانيَّةُ كتابَهُ، والحيـاةُ مَدرسـتَهُ؟ هـل يجيءُ ذلـك اليـوم؟ لا نـدري، ولكننَّـا نـشعرُ بـسَيرِنا الحثيـثِ نحوَ الارتقاءِ الرُوحِيِّ، وذلكَ الارتقاءُ هو إدراكُ جمالِ الكائنـاتِ بوَاسِـطةِ عَواطِفِ نُفُوسِنا واستِدرارِ السَعادةِ بمَحبَّتنا ذلك الجمَالَ.

---

(١) أترابي: رفاقي الذين في سنِّي، وعمري.
(٢) معميَّاتُ الكتب: غوامضها التي تخفى على القارئ.

ففي عَشيّةِ يَوم وقد جَلستُ على شُرفةِ المَنزلِ أتأمَّلُ العِراكَ المُستَمِرَّ في سَاحةِ المَدينة، وأسمَعُ جَلَبَةَ[1] باعَةِ الشَوارعِ ومُنادَاةَ كُلٍّ مِنهْم عن طِيبِ ما لدَيْه من السِلَعِ[2] والمآكل، اقتربَ مني صَبِيٌّ ابنُ خَمسٍ يرتَدي أَطمارًا باليةً ويَحمِلُ على مَنكِبَيْهِ طَبَقًا عليه طاقاتُ الزُهورِ[3] وبصَوتٍ ضَعيفٍ يُخفِضُهُ الذُلُّ المَوروثُ والانكسارُ الأليمُ قال:

- أتشتَري زَهرًا يا سيّدي؟

فنظَرْتُ إلى وَجهِهِ الصَغيرِ المُصْفَرِّ، وتَأمّلْتُ عينَيه المَكحُولتَيْنِ بأخيلَةِ التَعاسَةِ والفَاقَةِ[4]، وفمَه المفتوحَ قَليلاً كأنه جُرحٌ في صَدرٍ مُتوجِّع، وذراعَيه العَاريتَيْن النَحيلَتَيْن، وقامتَه الصغيرةَ المَهزولةَ المُنحنيَةَ على طَبَقِ الزهورُ كأنَّها غُصنٌ منَ الوَردِ الأصفَرِ الذَابلِ بينَ الأعشابِ النَضِرةِ؛ تأمّلْتُ كلَّ هذه الأشياءِ بلَمحَةٍ مُظهِرًا شفقَتِي بابتسَاماتٍ هيَ أَمرُّ من الدُمُوع، تلكَ الابتساماتِ التي تَنشقُّ من أعماقِ قُلُوبنا وتَظهَرُ على شِفاهِنا ولو تَركْنَاها وشَأنَها لتَصَاعَدَتْ

(١) جلبة: اختلاطات الأصوات والصياح.

(٢) السِلَع: ج سِلعة: المتاع وما يُتاجَرُ به.

(٣) الأفضلُ تنكير «الزهور» لضبط سياق المعنى.

(٤) الفاقة: الحاجة الشديدة، العَوَز.

وانسَكَبَتْ مِن مَآقينا، ثُمَّ ابتعتُ بعضَ زُهورِه وبُغْيَتِي ابتياعُ مُحادَثتِهِ لأنني شَعَرتُ بأنَّ من وراءِ نَظَراتِهِ المُحزنَةِ قلبًا صَغيرًا يَنطَوي عَلى فَصلٍ من مَأساةِ الفُقَراءِ الدائمِ تَمثيلُها على مَلعبِ الأيام، وقَلَّ مَنْ يهتَمُّ بمُشاهَدتِها لأنَّها مُوجِعَة. ولَمَّا خاطبتُه بكلماتٍ لَطيفةٍ استأمَنَ واستأنَسَ ونَظرَ إليَّ مُستغرِبًا لأنّه مثلُ أترابِهِ الفقراءِ لم يَتَعَوَّدْ غيرَ خَشِنِ الكَلام مِن أولئِكَ الذين يَنظرونَ غالبًا إلى صِبيَةِ الأزِقَّةِ كأشياءَ قَذِرَةٍ لا شأنَ لها، وليسَ كنُفُوسٍ صَغيرةٍ مكَلومَةٍ بأسهُمِ[1] الدَهر. وسألتُه إذ ذاكَ قائلاً:

- ما اسمُك؟

فأجابَ وعيناهُ مُطرِقَتانِ إلى الأرض:

- اسمي فؤاد!

قلت: ابنُ مَنْ أنتَ؟ وأينَ أهلُك؟

قال: أنا ابنُ مَرتا البانيّة.

قلتُ: وأين والدُك؟

(١) المقصود: سهام. لأن أسهم جمع بمعنى نصيب، وفي الاقتصاد جزء من رأس المال؛ ومكلومة: مجروحة.

فهزّ رأسَه الصَغيرَ كمَنْ يجهَلُ مَعنى الوالد، فقلت:

- وأينَ أمُّك يا فؤاد؟

قال: مريضةٌ في البيت.

تجرّعَتْ مَسَامِعي هذه الكلماتِ القليلةَ من فَمِ الصَبيِّ وامتصَّتْها عَواطفي مُبتدِعةً صُوَرًا وأشباحًا غَريبةً مُحزِنةً لأنّي عَرَفْتُ بلحظةٍ أنّ مَرتَا المِسكينةَ التي سَمِعتُ حِكايتَها من ذلكَ القرويِّ هي الآنَ في بيروتَ مَريضةٌ. تلكَ الصَبيّةُ التي كانت بالأمسِ مُستأمِنةً بَين[1] أشجارِ الأوديةِ هيَ اليومَ في المَدينةِ تُعانِي مَضَض[2] الفَقْر والأوجَاع، تلك اليتيمةُ التي صَرَفَتْ شَبيبتَها على أكُفِّ الطبيعةِ ترعَى البقرَ في الحُقُولِ قد انحدَرَتْ مع جَرْفِ نَهرِ المَدينَةِ الفَاسِدَةِ وصارَتْ فريسةً بين أظفارِ التَعاسَةِ والشَقَاءِ.

كنتُ أفكِّرُ وأتَخيَّلُ هذه الأشياءَ والصَبِيُّ يَنظرُ إليَّ كأنّه رأى بعَين نفسِه الطَاهِرَةِ انسحَاقَ قَلبي. ولمّا أرادَ الانصِرافَ أمسَكْتُ بيدِهِ قائِلاً:

- سِرْ بي إلى أُمِّكَ لأني أريدُ أن أرَاها.

---

(١) الأفضل قوله: مستأمنةً إلى أشجَارِ الأودية، أو: آمنةً بين أشجار الأودية.

(٢) مَضَض: ألم، وجع.

فَسَارَ أمامي صَامِتًا مُتَعجِّباً، ومِن حينٍ إلى آخرَ كان ينظرُ إلى الوراءِ ليَرَى إذا كنتُ بالحَقيقَةِ مُتَّبِعًا خطواتِهِ.

في تلك الأزقَّةِ القَذِرةِ حيثُ يَختَمِرُ الهَواءُ بأنفاسِ المَوت، بينَ تلك المَنازِلِ الباليةِ حيثُ يرتكبُ الأشرارُ جَرائِمَهُم مُختبئينَ بسَتائِرِ الظلُمَةِ، وفي تلكَ المُنعطَفاتِ المُلتويةِ إلى اليَمينِ وإلى الشَمالِ التواءَ الأفاعِي السَوداءِ، كنتُ أسيرُ بخَوفٍ وتَهيُّبٍ وراءَ صَبيٍّ له من حَداثَتِهِ ونقَاوةِ قَلبِهِ شجَاعةٌ لا يشعُرُ بها مَنْ كان خبيرًا بمَكايِدِ أجلافِ[1] القَومِ في مدينةٍ يَدعُوها الشرقيُّونَ عَروسَ سُوريا ودُرَّةَ تاجِ السَلاطِينِ، حتَّى إذا ما بلَغْنا أذيالَ الحَيِّ دَخَلَ الصبَيُّ بيتًا حَقيرًا لم تُبقِ منه السُنونَ غيرَ جَانبٍ مُتَدَاعٍ، فدخلتُ خَلفَه وطَرقاتُ قلبي تتسَارَعُ كلَّما اقتربتُ حتَّى صِرتُ في وَسَطِ غرفةٍ رَطبةِ الهَواءِ ليس فيها من الأثاثِ غيرُ سِراجٍ ضعيفٍ يُغالِبُ الظُلمَةَ بسِهامِ أشعَّتِهِ الصَفراءِ، وسَريرٍ حَقيرٍ يَدُلُّ على عَوَزٍ مُبَرِّحٍ وفَقْرٍ مُدْقِعٍ[2] مُنطرِحَةٍ عليه امرأةٌ نائِمَةٌ قد حَوّلَتْ وجهَها نحوَ الحَائِط كأنّها تحتَمي به من مظالمِ العَالَمِ أو كأنّها وَجَدَتْ بينَ جُدرانهِ قَلبًا أرقَّ وألْيَنَ من قُلوبِ البَشر. ولَمَّا

---

(١) أجلاف: جمع جِلف وهو الغليظ الجافي.

(٢) مبرِّح: مُجهِد، شديد، مُتعب؛ فقر مدقع: لا مثيل له، شديد.

اقتَرَبَ الصَبِيُّ مِنها منادياً: «يا أمّاه!...» التفتَتْ إليه فرأتْهُ يُومِئُ نحوي فتحرَّكتْ إذ ذاك بين اللُحُفِ الرَثَّةِ، وبصَوتٍ مُوجِعٍ يلاحِقُهُ ألمُ النفسِ والتَنَهُّداتِ المُرَّةِ قالت:

ماذا تريدُ أيُّها الرجُل؟ هل جئتَ لتبتاعَ حَياتي الأخيرةَ وتجعَلَها دَنِسَةً بشَهَواتِكَ؟ اذهَبْ عَنِّي فالأزِقَّةُ مَشحُونةٌ بالنِساء اللواتي يَبِعْنَكَ أجسادَهُنّ ونفوسَهنّ بأبخَسِ الأثمان. أمّا أنا فلم يبَقَ لي ما أبيعُهُ غيرُ فَضَلاتِ أنفاسٍ مُتقَطّعةٍ، عمّا قريبٍ يَشتريها الموتُ براحَةِ القَبر!

فاقتربتُ من سريرِها وقد آلَمَتْ كلماتُها قَلبي لأنها مُختَصَرُ حِكايتِها التَعِسَة، وقلتُ مُتَمَنِّيًا لو كانت عَواطِفي تَسيلُ مع الكلام:

- لا تخافي منِّي يا مرتا فأنا لم أَجِئ إليكِ كحيوانٍ جَائعٍ بل كإنسانٍ مُتَوجِّع. أنا لبنانيٌّ عِشتُ زمنًا في تلك الأوديةِ والقُرى القريبةِ من غَابةِ الأرزِ. لا تخَافي مِنِّي يا مَرتا!

سمعَتْ كلماتي وشَعَرَتْ بأنّها صادرةٌ من أعماقِ نفسٍ تَتألَّمُ معَها، فاهتزَّتْ على مَضْجَعِها مثل القُضبانِ العاريةِ أمامَ رياحِ الشِتَاءِ، ووضَعَتْ يدَيْها على وَجْهِها كأنّها تريدُ أن تَستُرَ ذاتَها من أمامِ الذِكرَى الهَائِلةِ بحَلاوَتِها، المُرّةِ بِجَمالِها. وبعدَ سكينةٍ مَمزُوجَةٍ بالتأوُّهِ ظهَرَ

وجهُها من بينِ كتفَيْها المُرتَجفتَيْنِ فرأيتُ عينَينِ غائِرتَيْنِ مُحدِّقتَيْنِ إلى شَيءٍ غيرِ منظورٍ مُنتَصبٍ في فضاءِ الغُرفةِ، وشفَتَيْنِ يابِستَيْنِ تُحرِّكُهما ارتعاشاتُ اليأسِ، وعُنُقًا تتردَّدُ فيه حَشْرجَةُ النزع[1] المَصحُوبةُ بأنينٍ عَميقٍ مُتَقَطِّعٍ، وبصَوتٍ يَبُثُّهُ الالتماسُ والاستِطعافُ ويَستَرجِعُهُ الضُعفُ والألمُ قالت:

– جئتَ مُحسِنًا مُشفِقًا فَلْتَجزِكَ السَماءُ عنّي إن كانَ الإحسانُ على الخَطاةِ بِرًّا، والشفقةُ على المَرذولينَ صَلاحاً. ولكنّي أطلبُ إليكَ أن تعودَ من حيثُ أتيتَ لأنَّ وقوفَك في هذا المَكانِ يُكسِبُكَ عارًا ومَذَمَّةً، وحنَانَكَ عليَّ يُثمِرُ لكَ عَيبًا ومَهانَةً. ارجِعْ قبلَ أن يراكَ أحدٌ في الغرفةِ الدَنِسَةِ المَملوءَةِ بأقذارِ الخَنازيرِ، وسِرْ مُسرعًا ساتِرًا وجهَكَ بأثوابِكَ كيلا يَعرِفَكَ عابرو الطَريقِ. إنَّ الشفقةَ التي تَملأُ نفسَكَ لا تُعيدُ إليّ طَهارتي، ولا تَمحُو عُيُوبي، ولا تزيلُ يَدَ المَوتِ القَويّةَ عن قَلبي. أنا مَنْفِيَّةٌ بحُكمِ تعاسَتي وذُنُوبي إلى هذهِ الأعماقِ المُظْلِمَةِ، فلا تَدَعْ شفقتَكَ تُدنيكَ من العُيوب. أنا كالأبرصِ[2] السَاكنِ بين القُبورِ

---

(١) حَشرجَةُ النَزْعِ: غَرْغَرَةُ المُحتَضَرِ، وتردُّدُ نفسِه.

(٢) الأبرص: المصاب بالبَرَص، وهو مرضٌ يُحدِث في الجسم قشرًا أبيض يسبّب للمريض حَكًّا مؤلمًا.

فلا تَقترِبْ منّي، لأنَّ الجامعةَ[1] تحسَبُكَ دَنِسًا وتُقْصِيكَ[2] عنها إذا فَعَلتَ. ارجِعِ الآنَ ولا تذكُرِ اسمي في تلكَ الأوديةِ المقدَّسةِ، لأنَّ النعجةَ الجَرباءَ يُنكِرُها رَاعِيها خَوفًا على قَطيعِه. وإذا ذكرتَني قُلْ: قد ماتَتْ مَرتا البانيَّةُ ولا تَقُلْ غيرَ ذلك.

ثمّ أخذت يدَي ابنِها الصَغيرتَيْنِ وقبَّلَتْهُما بلهفةٍ وقالت مُتنهِّدةً:

سوفَ ينظرُ الناسُ إلى وَلدي بعينِ السُخريةِ والاحتِقارَ قائِلينَ: هذا ثمرةُ الإثمِ، هذا ابنُ مَرتا الزانِيَةِ، هذا ابنُ العَارِ، هذا ابنُ الصُدَفِ. سوفَ يقولُونَ عنهُ أكثرَ من ذلك، لأنّهم عُميانٌ لا يُبصِرُون، وجُهَلاءُ لا يَدرُون أنَّ أمَّه قد طَهَّرَتْ طُفُولَتَهُ بأوجاعِها ودُموعِها، وكفَّرَتْ عن حَياتِهِ بتَعاسَتِها وشَقائِها. سوف أموتُ وأترُكُه يَتيمًا بين صِبيَانِ الأزقّةِ، وَحيدًا في هذهِ الحَياةِ القاسِيةِ، غيرَ تاركةٍ له سِوى ذِكرى هَائِلَةٍ تُخجِلُه إن كان جَبانًا خامِلاً وتُهيِّجُ دَمَه إن كانَ شُجاعًا عَادِلاً. فإن حَفِظَتْهُ السماءُ وشَبَّ رجُلاً قَويًّا ساعَدَ السماءَ على الذي جَنَى عَليهِ وعلى أمِّهِ، وإن ماتَ وتملَّصَ من شبكةِ السِنينَ

(١) المقصود المجتمع البشري.
(٢) تُقصِيك: تُبعِدُك.

وَجَدَني مُترقِّبةً قدومَهُ هناك حيثُ النورُ والراحَة!

فقلتُ وقَلبي يُوحِي إليّ: «لَستِ كالأبرَصِ يا مَرتا وإن سَكنتِ بينَ القُبُور، ولستِ دَنِسَةً وإن وَضَعَتْكِ الحَياةُ بينَ أيدي الدَنِسِين[1]. إنَّ أدرانَ[2] الجَسَدِ لا تلامِسُ النفسَ النقيّةَ، والثلوجَ المُتراكِمةَ لا تُميتُ البُذُورَ الحَيّةَ. وما هذه الحياةُ سِوى بَيدرِ أحزانٍ تُدرَسُ عليه أغمارُ النُفُوسِ قَبل أن تُعطِي غَلّتَها. ولكن وَيلٌ للسنابلِ المَترُوكةِ خارجَ البَيدر، لأنَّ نملَ الأرضِ يَحْمِلُها وطيورَ السَماءِ تلتَقِطُها، فلا تدخُلُ أهراءَ[3] ربِّ الحقل[4]».

أنتِ مظلومةٌ يا مَرتا وظالِمُك هو ابنُ القُصُورِ، ذُو المَالِ الكَثيرِ والنَفسِ الصَغيرَةِ. أنتِ مَظلومةٌ ومُحتقَرَةٌ، وخيرٌ للإنسان أن يكونَ مَظلُومًا من أن يَكونَ ظالِماً، وأخلقُ به أن يكونَ شهيدَ ضُعفِ الغَريزةِ التُرابيّةِ من أن يكونَ قَويًا سَاحِقًا بمَقَابِضِهِ زهورَ الحَياةِ، مُشوِّهًا بمُيُولِهِ محَاسِنَ العَواطِف.

---

(١) دَنِسين: جمع دنس، والصواب: أدناس ومدانيس.
(٢) أدران: ج دَرَن وهو الوسخ.
(٣) أهراء: مخازن، مواضع تُجمع فيها حبوبُ الغَلّةِ من قمح وغيره.
(٤) إشارة إلى قول المسيح في مثل الزارع وتفسيره (متى ١٣: ١ – ٢١).

النفسُ يا مرتا هي حَلْقَةٌ ذهبيّةٌ مَفروطَةٌ من سِلسِلَةِ الأُلوهيّةِ، فقد تَصهَرُ النارُ الحاميةُ هذه الحَلْقَةَ وتُغيِّرُ صورتَها وتَمحُو جمالَ استِدارَتِها، لكنَّها لا تُحِيلُ ذهبَها إلى مَادّةٍ أخرى، بل تَزيدُه لَمعاناً. ولكن وَيلٌ للهَشيمِ إذ تَأتي النارُ وتلتَهِمُه وتَجْعَلُهُ رَمادًا ثمّ تَهُبُّ الرياحُ وتُذرِيه على وَجه الصَحراء[1]...

إي مَرتا، أنتِ زَهرةٌ مَسحُوقةٌ تحتَ أقدامِ الحَيوانِ المُختَبئِ في الهيَاكلِ البَشريّة. قد داسَتْكِ تلكَ النِعالُ بقَساوَة، لكنَّها لم تُخفِ عِطرَكِ المُتَصاعِدَ مع نُواحِ[2] الأراملِ وصُراخِ اليَتامَى وتنَهيداتِ الفقراءِ نحو السَماءِ مَصدرِ العَدل والرَحمة. تَعَزَّيْ يا مَرتا بكوْنِكِ زَهرةً مسَحوقةً ولستِ قَدَمًا سَاحِقَةً»![3]

كنت أتكلَّمُ وهي مُصغِيةٌ[4] وقد أنارَتِ التعزيةُ وجهَها المُصفرَّمثلَما تُنيرُ أشعَّةُ المَغْربِ اللطيفةُ خَلايا الغُيومِ. ثمّ أومأَتْ إليَّ أنِ

---

(١) الألمُ ضرورةٌ لصَقْل إنسانيَّةِ الإنسان، ولا ترهفُ النفسُ إلا بالألم.

(٢) نواح: بكاء شديد.

(٣) إذا كان لا بدَّ من خيار بين أن يكون الإنسانُ ظالمًا أو يكون مظلومًا، فخيرٌ له أن يكون مظلومًا. موقف سوف يتبدَّل في «الأرواح المتمرِّدة» عندما نرى خليلاً يتمرَّد على الظالمين ويقف في مواجهتهم وجموع القرية تؤيِّده وتفعل فعله.

(٤) يجدر إضافة «إليَّ» ليستقيمَ المعنى.

اجلِسْ على جَانبِ السرير، ففعلتُ مُسائِلاً مَلامِحَها المُتكلّمةَ عن مُخبّآتِ نفسِها الحَزينة. ملامحَ مَنْ عَرَفَ أنّه مائتٌ. ملامحَ صَبيّةٍ في رَبيعِ العُمرِ قد شَعَرَتْ بوقْعِ أقدَامِ المَوتِ حولَ فِراشِها البالي. مَلامِحَ امرأةٍ مَتروكةٍ كانت بالأمسِ بينَ أوديةِ لُبنانَ الجَميلةِ مَملوءةً حياةً وقُوّةً، فصارَتِ اليومَ مَهزولةً تترقَّبُ الانعتاقَ من قُيودِ الحَياةِ. وبعدَ سَكينةٍ مُؤثّرةٍ جَمَعَتْ فَضَلاتِ قُواها وقالَتْ ودُموعُها تتكَلَّمُ مَعها ونفسُها تَتصاعدُ مع أنفاسِها:

نَعم، أنا مَظلومةٌ، أنا شهيدةُ الحيوانِ المُختَبئِ في الإنسانِ، أنا زهرةٌ مَسحوقةٌ تحتَ الأقدام. كنتُ جالسةً على حَافَّةِ ذلك اليَنبوعِ عِندَما مرَّ رَاكباً... قد خَاطَبَني بلُطفٍ ورقّةٍ وقال إنّي جَميلةٌ وإنَّه أجنَّبي فلا يَترُكُني، وإنَّ البرِّيَّةَ مَملوءةٌ وَحشَةً والأوديةَ هي مَساكنُ الطُيور وبَناتِ آوى... ثمّ ألوَى عَليَّ وضَمنّي إلى صَدرِه وقَبَّلَني، وكنتُ لم أَذُقْ حتى تلكَ السَاعةِ طَعْمَ القُبلةِ لأنّي كنتُ يَتيمةً مَتروكةً. أردَفني خَلفَهُ[1] على ظَهر الجَوادِ وجاءَ بي إلى بَيتٍ جَميلٍ مُنفَردٍ. ثم أتى بالمَلابِسِ الحَريريَّةِ والعُطُورِ الزَكيّةِ والمآكلِ اللَذيذةِ والمَشارِبِ

(١) أردف: أركب خلفه، فلا حاجة بالتالي إلى «خلفه» بعد «أردف».

الطَيِّبةِ... فعلَ كُلَّ ذلك مُبتَسِمًا سَاتِرًا بشاعَةَ مُيولِهِ وحَيوانيّةَ مَرامِهِ[1] بالكَلام اللطيفِ والإشاراتِ المُستَحَبَّةِ... وبعدَ أن أشبَعَ شَهواتِهِ من جَسَدي وأثقلَ بالذُلِّ نفسِي غَادَرَني تارِكًا في أحشَائي شُعلةً حَيَّةً مُلتهبةً تَفَذَّتْ من كَبِدِي ونَمَت ثمّ خَرَجَتْ إلى هذه الظُلمَةِ من بَين دُخانِ الأوجَاع ومَرَارةِ العَويل... وهكذا قَسَمتُ حَياتي إلى شَطرَيْنِ: شطرٍ ضَعيفٍ مُتألّمٍ، وشَطرٍ صَغيرٍ يصرُخُ في هُدُوء الليلِ طَالبًا الرُجُوعَ إلى الفَضَاءِ الوَاسِع. في ذلك البَيتِ المُنفردِ تركَني الظَلومُ ورَضِيعي نُقاسِي مَضَضَ الجُوعِ والبَرد والوَحدةِ، لا معينَ لنا غيرُ البُكاء والنَحيبِ، ولا سميرَ سِوى الخَوفِ والهَواجس[2]...

وعلمَ رفاقُه بمَكاني وعَرَفُوا بعَوَزِي[3] وضُعفي، فجاءَ الواحدُ بعدَ الآخَرِ وكُلٌّ يَبتَغِي ابتياعَ العِرضِ[4] بالمَال، وإعطاءَ الخُبزِ لقاءَ شَرَفِ الجَسَدِ... آه! كم قبضتُ على رُوحي بيَدي لتقَديمِها للأبديَّةِ، ثمّ أفلتُّها لأنّها لم تكُن لي وَحدِي، فشَريكي بها كانَ وَلَدِي الذي

(١) مرامه: مقصده، بغيته، مراده.
(٢) الظلوم: الظالم؛ نقاسي: نعاني، نتحمّل الألم؛ مضض الجوع: ألمه؛ لا معين لنا: لا مساعِدَ لنا؛ لا سميرَ: لا مُسليَ...
(٣) عَوَزي: حاجتي.
(٤) العِرض: الشرف.

أبعَدَتْهُ السَماءُ عَنها إلى هذهِ الحَياة، مثلَما أقصَتْني عنِ الحياةِ وألقَتْني في أعماقِ هذه الهَاوية... والآنَ ها هي السَاعةُ قد دَنَتْ وعَريسي الموتُ قد جاءَ بعدَ هِجْرَانِه ليقودَني إلى مَضجَعِهِ النّاعِم!

وبعدَ سَكينةٍ عَميقةٍ تُشابِهُ مَسَّ الأرواح المُتطايرّةِ، رفعَتْ عَينَها المَحجُوبَتَيْنِ بظِلِّ المَنيّةِ وقالت بهُدوء:

- أيها العدَلُ الخَفيُّ، الكامِنُ وراءَ هذه الصُوَرِ المُخيفَةِ، أنتَ أنتَ السَامِعُ عويلَ نفسي المُودَّعَةِ ونداءَ قلبي المُتهَامِل، منكَ وحدَكَ أطلبُ وإليك أتضرَّعُ، فارحَمْني وارعَ بيُمنَاكَ وَلَدي، وتَسَلَّمْ بيُسرَاكَ رُوحي!

وخارَتْ قُواها وضَعُفَتْ تَنَهُّداتُها، ونظرّتْ إلى ابنِها نِظرةَ حُزنٍ وحُنُوّ، ثمّ مَيَّلَتْ عينَيها ببطءٍ وبصَوتٍ يكادُ يكونُ سَكِينةً قالت: «أبانا الذي في السَمَوات... ليتقدَّسِ اسمُكَ... ليأتِ ملكوتُكَ... لِتُكنْ مشيئتُكَ كما في السماء كذلك عَلى الأرضِ، اغفِرْ لنا ذُنُوبَنا».

وانقطَعَ صوتُها، وبَقِيتْ شَفَتَاها مُتَحَرِّكَتَيْنِ هُينهةً، وبوقُوفِهما هَمَدَتْ[1] كلُّ حركةٍ في جَسَدِها. ثمّ اختلجَتْ وتأوّهَتْ وابيضَّ وجهُها وفاضَتْ روحُها. وظلَّتْ عيناها مُحدِّقتَيْن إلى ما لا يُرى.

(١) همدت: سَكَنَتْ، توقَّفَتْ عن الحراك.

عندما جَاءَ الفجرُ وُضِعَتْ جُثّةُ مَرتا البانيّةِ في تابوتٍ خَشبيٍّ، وحُمِلتْ على كَتفَي فقيرَيْن ودُفِنَتْ في حَقلٍ مَهْجُور بعيدٍ عن المَدينة. وقد رفَضَ الكُهّانُ الصلاةَ على بَقاياها ولم يَقبَلُوا أن ترتاحَ عظامُها في الجَبَّانَةِ[1] حيثُ الصليبُ يَخْفِرُ[2] القبورَ، ولم يُشيِّعْها[3] إلى تلكَ الحُفرةِ البَعيدةِ غيرُ ابنِها وفتًى آخَرَ كانَتْ مصائبُ هذه الحياةِ قد علَّمتْه الشفقةُ.

***

(١) الجبَّانة: حيث يُقبَرُ (يُدفَنُ) الأموات.

(٢) يخفر: يحرس، يرعى، يحمي.

(٣) لم يشيِّعها: لم يرافقها في رحلتها الأخيرة إلى المقبرة.

# يوحنا المجنون

## (١)

في أيّامِ الصَيفِ كان يُوحنَّا يَسيرُ كُلَّ صَباحٍ إلى الحَقلِ سَائِقًا ثِيرانَه وعُجُولَه، حَامِلاً مِحرَاثَهُ على كَتِفَيْه، مُصغيًا لتَغَاريدِ الشَحارِيرِ وحَفيفِ أوراقِ الأغصَانِ. وعندَ الظهيرةِ كانَ يقتربُ مَن السَاقيةِ المتراكِضَةِ بينَ مُنخَفَضاتِ تلك المُروجِ الخَضراءِ ويأكُلُ زادَه تارِكًا عَلى الأعشابِ ما بَقِيَ مِنَ الخُبزِ للعصَافير. وفي المَساءِ عندَما يَنتزعُ المَغربُ دقائقَ النُورِ من الفَضَاءِ، كانَ يعودُ إلى البَيتِ الحَقِير المُشرِفِ على القُرَى والمَزارعِ في شَمال لُبنَان، ويَجلِسُ بسكَينةٍ مع وَالدَيه الشَيْخَيْنِ مُصغِيًا لأحادِيثِهما[1] المَملوءَةِ بأخبارِ الأيّامِ شَاعِرًا بدُنُوِّ النُعاسِ والرَاحَةِ مَعًا.

وفي أيّام الشِتاءِ كانَ يتَكِئُ مُستَدفِئًا بقُرب النارِ، سَامِعًا تأوُّهَ

(١) يُقال: أصغى إلى... لذلك كان من الأصوب القول: مصغيًا إلى تغاريد الشحارير، و: مصغيًا إلى أحاديثهما.

الأرياحِ ونَدْبَ العَناصِر، مُفكِّرًا بكَيفيَّةِ تَتَابُع الفُصُول، نَاظِرًا مِنَ الكُوَّةِ الصَغيرةِ نحوَ الأوديةِ المُكتَسِيَةِ بالثُلوجِ، والأشجَارِ العَاريةِ من الأوراقِ كأنّها جَماعَةٌ من الفقَرَاءِ تُرِكُوا خَارِجًا بينَ أظفارِ البَردِ القَارسِ والرِيَاحِ الشَديدَة.

وفي اللَيالي الطَويلةِ كانَ يَبقى سَاهِرًا حتى ينامَ والدُه ثمَّ يَفتَحُ الخزانَةَ الخَشبيّةَ ويأتي بكتاب العَهدِ الجدَيد، ويَقرأُ منه سرًّا على نُورِ مِسرَجةٍ ضَعيفةٍ، مَتَلَفّتًا بتَحَذُّرِ بينَ الآونةِ والأُخرَى نحوَ والدِهِ النَائِمِ الذي مَنَعَهُ عَن تِلاوةِ ذلكَ الكتابِ، لأنَّ الكهنةَ يَنهَوْنَ بُسَطاءَ القَلب عَنِ استِطلاعِ خَفَايا تَعاليمِ يَسوعَ ويَحرِمُونَهم من «نِعَمِ الكنيسةِ» إذا فَعَلُوا.

هكذا صَرَفَ يوحَنّا شَبيبتَهُ بينَ الحَقلِ المَملُوءِ بالمَحَاسِنِ والعَجَائِبِ وكتابِ يَسُوعَ المُفعَمِ بالنُورِ والروح. كان سَكُوتًا كثيرَ التأمُّلاتِ يُصغي لأحاديثِ وَالدَيْهِ ولا يُجيبُ بكَلِمَةٍ، ويلتَقي بأترابِهِ الفتيانِ ويُجالِسُهم صَامِتًا ناظِرًا إلى البَعيدِ حيثُ يلتَقي الشفَقُ بازرقاقِ السَماءِ. وإذا ما ذَهَبَ إلى الكَنيسةِ عَاد مُكتَئِباً، لأنَّ التعاليمَ التي يَسمَعُها مِن عَلى المَنَابِرِ والمَذَابح هي غيرُ التي يَقرأُها في الإنجيلِ، وحَياةَ المُؤمنين مع رُؤسائِهم هيَ غيرُ الحَياةِ الجَميلةِ التي تكَلَّم عَنها يَسوعُ الناصري.

جاءَ الربيعُ وَاضمَحَلَّتِ الثُلُوجُ في الحُقُولِ والمُروجِ، وأصبَحَتْ بَقاياها في أعالي الجِبال تذوبُ وتَسيرُ جداولَ جداولَ في مُنعطفاتِ الأودِيةِ، وتجتَمعُ أنهُرًا غَزيرةً تتكلَّمُ بهَدِيرها عَن يقظَةِ الطَبيعةِ، فأزهَرَتْ أشجارُ اللَوزِ والتُفَّاح، وأورَقَتْ قُضبانُ الحَوْرِ والصَفْصَافِ، وأنبتَتِ الرَوابي أعشابَها وأزهارَها، فتَعِبَ يُوحَنا من الحَيَاةِ بجَانِبِ المَوَاقِدِ، وعَرَفَ أن عُجُولَهُ قد مَلَّتْ ضِيقَ المَرَابِضِ، واشتَاقَتْ إلى المَراعِي الخَضْراءِ، لأنَّ مَخَازنَ التِبنِ قد شَحَّتْ، وزنابِلَ الشَعيرِ قد نَفَدَتْ. فجاءَ وَحَلَّهَا من مَعَالِفِهَا وسارَ أمامَها إلى البَرِيّةِ سَاتِرًا بعبَاءتِه كتابَ العَهدِ الجَديدِ كَيلا يراهُ أحدٌ، حتى بلغَ المَرجَةَ المُنبَسِطَةَ على كَتَفِ الوَادِي بقُربِ حُقُولِ الدَير القائمِ كالبُرجِ الهائلِ بَين تلكَ الهِضَابِ[1]، فتفرّقَتْ عُجُولُه مُرتعيةً الأعشابَ، وجلسَ مُستنِدًا إلى صَخرةٍ يتأمّلُ تارةً بجَمالِ الوَادي وطَورًا بسُطُورِ كتابِهِ المُتكلِّمَةِ عن مَلَكُوتِ السَمَواتِ.

كان ذلكَ النهارُ من أواخِرِ أيّام الصَوم، وسكّانُ تلك القُرى المُنقَطِعُونَ عن اللُحومِ، أصبَحُوا يَترقَّبونَ بفَضَلاتِ الصَبرِ مَجيءَ عِيدِ الفِصح. أمّا يُوحنّا، فمثلُ جميعِ المزارعين الفقراء لم يكُن يُفرِّقُ بين أيّامِ

---

(١) يقصد دير إليشاع النبي، يقع شمال لُبنان وهو ملكٌ للرُهبان الحلبيين سابقًا، المريميِّين حاليًا.

الصيامِ وغيرِها، فالعمرُ كلُّه كانَ صَومًا طَويلاً عندَه، وقُوتُه لم يتجاوَزْ قطُّ الخبزَ المعجونَ بعرَقِ الجَبين، والثمارَ المُبتاعَةَ بدَم القلبِ، فالانقطاعُ عن اللُّحُومِ والمآكلِ الشَهيَّةِ كانَ طبيعِيًا. مُشتَهَياتُ الصَومِ لم تَكُن في جَسدِه بل في عَواطِفِه، لأنها تعيدُ إلى نفَسِه ذِكرى مأساة «ابنِ البشرِ» ونهايةَ حَياتِهِ على الأرض.

كانتِ العصافيرُ ترفرفُ مُتَنَاجيةً حولَ يُوحنّا، وأسرابُ الحَمام تتطايرُ مُسرِعةً، والزهورُ تتمايلُ مع النَسيم كأنّها تَتحَمَّمُ[1] بأشعَّةِ الشَمس، وهو يقرأ في كتابِهِ بتَمَعُّنٍ[2] ثمّ يرفَعُ رأسَه ويرَى قُبَبَ الكنائسِ في المُدُنِ والقُرى المَنثورةِ على جَانِبَي الوادي، ويَسمَعُ طنينَ أجراسِها فيُغمِضُ عَينَيهِ وتَسبَحُ نفسُه فوقَ أشلاءِ الأجيالِ إلى أورَشليمَ القديمةِ مُتَّبعَةً أقدامَ يسوعَ في الشَوارع سَائِلةً العابرينَ عنه فيُجيبُونَها قائلين: هنا شَفَى العُميانَ وأقامَ المُقْعَدِينَ. وهناك ضَفَرُوا له إكليلاً من الشَوكِ ووَضعُوه على رَأسه. في هذا الرُواقِ وَقَفَ يُكلّمُ الجُموعَ بالأمثالِ، وفي ذلك القَصرِ كتَّفُوهُ على العَمُودِ وبَصَقُوا على وَجهِهِ وجَلَدُوه. في هذا الشارعِ غَفَر للزانيةِ خَطاياَها، وفي ذاكَ وَقَعَ

(١) المقصود: تستحمّ. وقد دافع نعيمه عن هذا الخطأ في مقاله «نقيق الضفادع» مستغربًا كيف يجوز للجاهلّي أن يشتق مفردات ولا يجوز لابن هذا العصر أن يحذو حذوه.
(٢) بتمَعُّن: بتروٍّ وتعمُّق. وتمعَّن في الأمر: روَّى فيه.

على الأرضِ تحتَ أثقالِ صَليبِهِ.

ومرَّتِ الساعةُ ويوحنّا يتألَّمُ مع الإله الإنسانِ بالجَسدِ، ويتمجَّدُ معَهُ بالرُّوحِ، حتى إذا ما انتصَبَ النهارُ قامَ من مَكانِهِ ونَظَر حَولَهُ فلم يرَ عُجُولَه، فمَشَى مُلتَفتًا إلى كُلّ ناحيةٍ مُستغربًا اختفاءَها في تلك المُروجِ السَهلة. ولما بلغَ الطريقَ المُنْحنيةَ بينَ الحُقُولِ انحناءَ خُطُوطِ الكَفِّ رأَى عَن بُعدٍ رجُلاً بمَلابسَ سوداءَ واقِفًا بينَ البَساتِينِ، فأسرَعَ نحوَه، ولَمَّا اقترَبَ منهُ وعَرفَ أَنّه أحدُ رُهبانِ الدَيرِ، حيّاهُ بحَنْيِ رأسهِ ثمّ سألهُ قائِلاً: «هل رأيتَ عُجُولاً سائرةً بيَن هذه البساتينِ يا أبتاه»؟ فنظرَ إليه الراهبُ مُتكلِّفًا إخفاءَ حَنَقِهِ[1] وأجابَ بخُبثٍ: «نعم رأيتُها فهي هناكَ، تَعالَ وانظُرْها».

فسارَ يُوَحْنّا وراءَ الراهبِ حتَّى بلغَا الدَيرَ، فإذا بالعُجُولِ ضمنَ حَظيرَةٍ واسعةٍ مُوثَقَةٍ بالحِبالِ يَخفِرُها أحدُ الرُهبانِ وفي يَدهِ نَبُّوتٌ[2] يَجلِدُها به كيفَما تَحرَّكت. وإذ هَمَّ يُوحَنّا ليقودَها أمسَكَ الراهبُ بعَباءَتِهِ والتَفَتَ نحوَ رُواقِ الدَير وصَرَخَ بأعلَى صَوته: «هوذا الراعِي المجرمُ قد قبضتُ عَليه».

---

(١) حنقه: غضبه.

(٢) النبُّوت: الفرع النابت من الشجرة؛ ويطلق على العصا الطويلة المستوية.

فهَرولَ القُسُسُ والرُهبانُ من كُلِّ ناحيةٍ يَتقدَّمُهُم الرئيسُ وهو رجلٌ يمتازُ عن رِفاقِهِ بنَحَافَةِ أثوابِهِ وانقِباضِ سَحنتِه[1]، وأحاطُوا بيُوحَنّا كالجُنودِ المُتسابقةِ على الفَريسةِ، فنظرَ يُوحَنّا إلى الرئيسِ وقال بهُدُوء: «ماذا فعلتُ لأكونَ مُجرِماً، ولماذا قبضتُم عليّ»؟

فأجابَهُ الرئيسُ وقد بانَتِ القساوةُ على وَجهِهِ الغَضُوب، وبصَوتٍ خَشِنٍ أشبَهَ بصريرِ المَناشيرِ[2] قال: «قد ارتعَتْ عُجُولُكَ زَرْعَ الدَيرِ وقضمَتْ قُضبانَ كُرومِهِ، فقبَضْنا عليكَ لأن الرَاعي هو المَسؤولُ عمّا تُخرِّبُه مَواشِيه».

فقال يُوحَنّا مُستعطفاً: «هي بهائمُ لا عقلَ لها يا أبتاهُ، وأنا فقيرٌ لا أملِكُ غيرَ قُوَى سَاعِدَيَّ وهذه العُجُولَ، فاترُكني أقودُها وأسيرُ وَاعِدًا إيّاكَ بأن لا أجيءَ إلى هذه المُرُوجِ مَرّةً أُخرى».

فقالَ الرئيسُ وقد تقدّمَ قليلاً إلى الأمامِ ورفَعَ يدَه نحوَ السماء: «إن الله قد وضَعَنا ههنا ووَكَلَ إلينا حِمايةَ أراضي مُختَاره إليشاع العَظيم، فنحنُ نُحَافِظُ عَليها ليلاً ونَهارًا بكلّ قُوانا لأنّها مُقدَّسة، وهي كالنّارِ تَحرقُ كُلَّ مَنْ يقتربُ منها، فإذا امتنَعْتَ عن مُحَاسَبةِ الدَيرِ

(١) السَحنة: الهيئة.

(٢) المناشير: ج منشار وهو آلة تُستعمل في قَطعِ الأخشاب والحطب.

انقلبَتِ الأعشابُ في أجوَافِ عُجُولِكَ سُمُومًا آكِلَة، ولكن ليسَ مِن سبيلٍ إلى الامتناعِ لأنّنا نُبقي بهائِمَكَ في حَظيرَتِنا حتَّى تَفِيَ آخرَ فِلسٍ عَليك».

وهَمَّ الرئيسُ بالذَهابِ فَأَوقَفَهُ يُوحَنّا، وقال مُتذلّلاً مُتوسِّلاً: «أستَحلِفُك، يا سيّدي، بهذِهِ الأيامِ المقدَّسةِ، التي تَألَّمَ فيها يسوعُ وبكَتْ لأحزانِها مَريمُ، أن تَترُكَني أذهبُ بعُجُولي. لا تكُن قاسِيَ القلبِ عَليَّ، فأنا فقيرٌ مسكينٌ والديرُ غَنِيٌّ عَظيم، فهو يُسامِحُ تَهامُلي[1] ويَرحَمُ شَيخوخةَ وَالدي».

فالتفَتَ إليه الرئيسُ وقال بِهُزءٍ: «لا يُسامِحُكَ الديرُ بمِثقالِ ذَرَّةٍ أيّها الجَاهِلُ، فَقيرًا كُنتَ أم غَنيًّا، فلا تستَحْلِفْني بالأشياءِ المُقدَّسةِ لأنّنا أعرَفُ منكَ بأسرَارِها وخَفَاياها، وإن شئتَ أن تقُودَ عُجُولَكَ من هذه المَرابِض فِافْتَدِهَا[2] بثلاثةِ دنانيرَ لقاءَ ما التهمَتْ مِنَ الزرع».

فقال يُوحَنّا بصوتٍ مُختَنِقٍ: «إنّني لا أملِكُ بارةً[3] واحدةً يا أبَتاه.

---

(١) المقصود: إهمالي.

(٢) افتدِها: ادفَعْ فِديةً لقاء الضرر الذي أحدثت لنعيدها إليك؛ المرابض: المواضع التي تبرك (تقعد) فيها.

(٣) بارة: وَحدة من العملة (المال المتداول) كانت رائجة أيام الأتراك. وهذه الوحدات كانت تسمَّى: التك، البارة، المتليك، المجيدية.

فأَشفِقْ عَليَّ وارحَمْ فَقري».

فأجابَ الرئيسُ بعد أن مَشَّطَ لِحيَتَهَ الكَثيفةَ بأصابِعِه: «اذهَبْ وَبعْ قِسمًا من حَقلِكَ وعُدْ بثلاثةِ دَنانيرَ، فخيرٌ لكَ أن تَدخُلَ السماءَ بلا حَقلٍ من أن تَكتَسِبَ غَضَبَ إليشاعَ العظيمِ باحتِجَاجِكَ أمامَ مَذبَحِهِ، وتهبِطَ في الآخرةِ إلى الجَحيمِ حيثُ النّارُ المؤبَّدة».

فسكت يُوحَنّا دَقيقةً وقد أبرقَتْ عَيناهُ وانبسَطَ مُحَيَّاهُ وتبدَّلتْ لَوائحُ[1] الاستِرحَامِ بمَلامِحِ القُوّةِ والإرادة، فقالَ بصَوتٍ تَمتزِجُ فيه نغمةُ المَعرفةِ بعَزمِ الشَبيبة: «هل يبيعُ الفقيرُ حقلَه مَنبتَ خبزِه ومَوردَ حياتِه ليُضِيفَ ثمنَه إلى خَزائِنِ الديرِ المُفعَمَةِ[2] بالفِضَّةِ والذَهَب؟ أمِنَ العَدلِ أن يَزدادَ الفقيرُ فَقرًا ويمُوتَ المِسكينُ جُوعًا كيما يغفرَ إليشاعُ العَظيمُ ذنوبَ بهائِمَ جائعةٍ»؟

فقالَ الرئيسُ هَازًّا استِكبارًا: هكَذا يقولُ يسوعُ المسيحُ: «مَن له يُعطَى ويُزادُ، ومَن ليسَ له يُؤخَذُ منه»[3].

---

(١) لوائحُ: مظاهرُ.

(٢) المفعمة: الملأى.

(٣) متى: ٢٥:٢٩.

سَمِعَ يُوحَنّا هذه الكلماتِ فاضطَرَبَ قلبُه في صَدرِه، وكَبُرَتْ نفسُه، وتعالَتْ قامَتُه عَن ذي قَبلُ، كأنَّ الأرضَ قد نَمَتْ تحتَ قَدَميه، فانتشَلَ الانجيلَ من جَيبِهِ كما يَستَلُّ الجُنديُّ سيفَه[1] للمُدافَعةِ، وصَرَخَ قائلاً:

«هَكذا تَتلاعَبُونَ بتَعليمِ هذا الكتابِ أيُّها المُراؤون[2]. هكذا تَستَخدِمُونَ أقدسَ ما في الحَياةِ لتَعميمِ شُرورِ الحَياة. فويلٌ لكم إذ يَأتي ابنُ «البشر» ثانيةً ويُخَرِّبَ أَديرَتَكُم ويُلقِي حجارَتَها في هذا الوادي، مُحرِقًا بالنارِ مَذابِحَكُم ورسُومَكُم وتَماثِيلَكُم! ويلٌ لكم من دِماءِ يسوعَ الزكيّةِ ودموعِ أُمِّهِ الطاهرة، إذ تَنقَلِبُ سَيلاً[3] عَليكُم وتَجرُفُكُم إلى أعماقِ الهاوية! ويلٌ وألفُ ويلٍ لكُم أيُّها الخاضِعُون لأصنامِ مَطامِعِكُم، السَاتِرُون بالأثوابِ السَوداءِ اسوِدادَ مَكرُوهاتِكُم، المُحَرِّكُونَ بالصَلاةِ شِفاهَكُم وقُلوبُكُم جامدةٌ كالصُخُور، الرَاكِعُون بتَذَلُّلٍ أمامَ المَذابحِ ونفوسُكُم مُتمرِّدةٌ على الله.

قد قُدتُمُوني بخَباثةٍ[4] إلى هذا المَكانِ المَملوءِ بآثامِكم، وكمُجرمٍ

---

(١) يَستلُّ سَيفَه: يُخرجُه من غمده. والغِمد هو بيت السيف.

(٢) المراؤون: المخادعون.

(٣) سيلاً: ماءً جارفة.

(٤) خباثة: من خَبُثَ: ضدَ طاب. والمقصود هنا: بخُبثٍ أي بمَكر.

قَبضتُم عليَّ من أجلِ قَليلٍ من الزّرعِ تَستنبتُهُ الشَمسُ ليَ ولكُم عَلى السَواء، ولمَّا استَعْطَفْتكُم باسم يَسوعَ واستَحْلَفْتُكُم بأيّامِ حُزنِه وأوجَاعِه استَهزَأتُم بي كأنّي لم أتكَلَّمْ بغَيرِ الحَماقَةِ والجَهالَة.

خُذُوا وابحَثُوا في هذا الكتابِ وأرُوني متَى لم يكُن يسوعُ غَفوراً؟ واقرأُوا هذه المأساةَ السَماويَّةَ وأَخبِرُوني أينَ تكلَّم بغَيرِ الرَحمةِ والرَأفة؟ أفي مَوعِظَتِهِ على الجَبَلِ؟ أم في تَعاليمِه في الهَيكلِ أمام مُضطَهِدِي تلكَ الزانيةِ المِسكينةِ؟ أم على الجُلجُلة[1] عندَما بَسَطَ ذِراعَيْه على الصَليبِ ليَضُمَّ الجنسَ البَشرِيَّ.

انظُرُوا يا قُساةَ القُلوبِ إلى هذه المُدُنِ والقُرى الفَقيرةِ، ففي مَنازِلِها يتلوَّى المَرضى على أَسِرَّةِ الأوجَاعِ، وفي حُبُوسِها[2] تفنَى أيّامُ البَائِسينَ، وأمامَ أبوابِها يتضرَّعُ المتسوِّلون، وعلى طُرُقِها ينامُ الغُرباءُ، وفي مَقابِرِها تَنُوحُ الأرامِلُ واليَتَامَى، وأنتُم ههنا تتمتَّعونَ براحَةِ التَواني والكَسَلِ، وتتلذّذونَ بثِمارِ الحُقُول وخُمُورِ الكُرومِ. فلم تزُورُوا مَريضاً، ولم تفتَقِدُوا سَجيناً، ولم تُطعِمُوا جَائعاً، ولم تُؤووا غَريباً، ولم

---

(١) الجلجلة: اسم الجبل الذي صُلب عليه السيّد المسيح.

(٢) حبوسها: سجونها.

تُعزُّوا حَزينًا[1]. وليتكُم تكتفُون بما لديكُم وتقنعُونَ بما اغتَصَبْتُم من جُدودِنا باحتِيالِكُم، فأنتُم تمُدُّونَ أيديَكُم كما تمُدُّ الأفاعِي رُؤوسَها، وتقبَضُونَ بشِدَّةٍ على ما وَفَّرَتْهُ الأرمَلةُ من عَمَلِ يدَيْها، وما أبقاهُ الفَلاحُ لأيّامِ شَيخُوخَتِهِ».

وسكَتَ يُوحَنّا ريثَما استرجَع أنفاسَه ثُمَّ رفَعَ رأسَه بفَخْرٍ وقال بهُدوء: «أنتم كُثَارٌ ههُنا وأنا وَحدي. افعَلُوا بي ما شِئتم، فالذئابُ تفترسُ النعجةَ في ظُلمَةِ اللّيلِ لكنَّ آثارَ دمائِها تبقَى على حَصباءِ الوَادي حتَّى يَجيءَ الفجرُ وتَطلُعَ الشمسُ».

كان يُوحنّا يتكلَّمُ وفي صَوتِهِ قُوّةٌ علويّةٌ توقِفُ في أبدانِ الرُهبانِ الحَرَكَةَ وتُثيرُ في نُفوسِهم الغَيظَ والحِدَّةَ، ومِثلَ غِربانٍ جائعةٍ في أقفاصٍ ضَيِّقةٍ كانُوا يرتَجِفُون غَضَبًا وأسنانُهم تَصرِفُ بشِدَّةٍ مُترقّبينَ من رَئيسِهم إشارةً ليُمزِّقُوه[2] تَمزيقًا ويَسْحَقُوه سَحْقاً، حتَّى إذا ما انتهَى من كلامِهِ وسَكَتَ سُكوتَ العَاصِفَةِ بعد تكسِيرِهَا الأغصانَ المتشامِخَةَ والأنصَابَ اليابسَةَ، صرخَ الرئيسُ بهم قائِلاً: «اقبضُوا على المُجرِمِ الشقيِّ وانزَعُوا منهُ الكتاب، وجُرّوه إلى حجرةٍ مظلمة من

(١) إشارة إلى حوار السيّد المسيح مع أهل اليمين وأهل الشمال.

(٢) دفعًا للالتباس في المعنى لابد من ذكر يوحنا لأن «يمزّقوه» عائدة إلى رئيسهم.

الدير، فمن يجدِّف على مختاري الله لا يُغفَرُ له ههنا ولا في الأبديّة».

فهَجَم الرُهبانُ على يُوحَنّا هُجومَ الكواسِرِ على الفَريسَةِ وقادُوهُ مَكتُوفًا إلى حُجرةٍ ضَيِّقةٍ وأقفَلُوا عَليه بعد أن نَهَكُوا جسَدَه بخُشُونَةِ أكُفِّهم ورَفْسِ أرجُلِهم.

في تلكَ الغُرفةِ المُظلِمَةِ وَقَفَ يُوحَنّا وِقفَةَ مُنتَصِرٍ توفَّقَ العَدُوُّ لأسرِه، ونظَرَ منَ الكُوّةِ الصَغيرةِ المُطِلَّةِ على الوَادي المَملوءِ بنُورِ النَهار، فتهلَّلَ وجهُهُ وشَعَرَ بلَذَّةٍ رُوحِيَّةٍ تعانِقُ نفسَهُ وطُمأنينَةٍ مُستعذَبَةٍ تَملِكُ عَواطِفَه، فالحُجرةُ الضَيِّقةُ لم تسجُنْ غيرَ جَسدِهِ، أمّا نفسُه فكانَتْ حُرّةً تَتموَّجُ مَع النَسيمِ بينَ الطُلولِ والمُروجِ، وَأيدِي الرُهبانِ التي آلَمَتْ أعضَاءَهُ لم تَمَسَّ عَواطفَهُ المُستأمِنَةَ بجِوارِ يَسوعَ النَاصريِّ. والمرءُ لا تُعذِّبُهُ الاضطهاداتُ إذا كان عَادِلاً، ولا تُفنِيهِ المَظالمُ إذا كان بجَانبِ الحَقّ، فسُقراطُ[1] شَرِبَ السُمَّ مُبتَسِماً، وبُولُسُ[2]

(١) سقراط: فيلسوف يوناني (نحو ٤٧٠ – ٣٩٩ ق.م). أحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره. اتّهمه أخصامه بالزندقة وحكموا عليه بالإعدام ففضل الموت على الهرب احترامًا لشرائع مدينته. شرب السمّ فمات في سجنه.

(٢) بولُس: اسمه الأول شاوُل. اهتدى على طريق دمشق نحو سنة ٣٣م وتعمّد على يد حننيا، ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدة ٣ سنوات باشر بعدها تبشير الأمم الوثنية فكان رسولها الممتاز. حُبس مرتين في القدس، وسيق إلى روما حيث قُطع رأسه سنة ٦٨م. يُطلق عليه لقب «رسول الأمم».

رُجِمَ فَارِحًا[1]. ولكنْ هو الضَميرُ الخَفيُّ نُخَالِفُهُ فيوجِعُنا، ونَخُونُه فيقضِي علينا.

وعَلِمَ وَالِدا يُوحَنّا بما جَرَى لوَحيدِهما، فجاءَت أُمُّه إلى الدَير مُستعينةً بعَصَاها، وترامَتْ على قَدمَي الرئيسِ تَذرِفُ الدُموعَ وتُقبِّلُ يدَيْهِ ليَرحَمَ ابنَها ويَغتفِرَ جَهلَه. فقالَ لها بعدَ أن رَفَعَ عينَيه نحوَ السَماءِ كمُترفِّعٍ عن العالميَّات[2]: «نحن نغتفرُ طيشَ ابنِكِ ونُسامِحُ جُنونَه ولكنَّ للدّيرِ حُقوقًا مقدَّسةً لابُدَّ منِ استيفائِها. نحنُ نسامِحُ بتواضُعِنا زَلاّتِ[3] الناسِ، أمّا إليشاعُ العَظيمُ فلا يسامِحُ ولا يَغفِرُ لِمَنْ يُتلِفُونَ[4] كرومَه ويرتَعُونَ زرعه».

فنظرَتْ إليهِ الوالدةُ والدَمعُ ينسَكِبُ على وَجنَتَيْها المُتجعِّدَتَيْنِ بأيدي الشَيخوخَةِ، ثمّ نَزَعَتْ قِلادةً[5] فِضِّيَّةً من عُنُقِها ووضَعَتْها في يَدِهِ قائِلة: «ليس لديَّ غيرُ هذه القِلادةِ يا أبَتاه، فهي عَطيَّةُ والدتي يومَ اقتراني، فَلْيَقْبَلْهَا الديرُ كَفَّارةً عن ذُنوبِ وحيدي».

---

(١) المقصود: فَرِحًا.

(٢) العالميَّات: الدنيويّات.

(٣) زلاّت: سقطات، خطايا.

(٤) يُتلفون: يُهلِكون.

(٥) قلادة: ما جُعِلَ في العُنُقِ من الحِليّ.

فأخذَ الرئيسُ القِلادَةَ ووضَعَها في جَيبِهِ ثمّ قالَ ووالدةُ يوحنّا تُقبِّلُ يدَيْه شُكرًا وَامتِناناً: «ويلٌ لهذا الجِيلِ، فقد انعكَسَتْ فيه آياتُ الكتاب وأصبَحَ الأبناءُ يأكُلُون الحِصْرِمَ والآباءُ يَضرِسُون[1]. اذهَبي أيّتُها المرأةُ الصَالِحَةُ وصَلّي من أجلِ ابنِكِ المَجنونِ لتَشْفِيَهُ السماءُ وتُعِيدَ إليه صَوابَه».

وخرج يُوحَنّا من أَسرهِ ومشَى بُبطءٍ أمام عُجُولِهِ بجانِبِ أُمِّه المُنحنيةِ على عَصَاها تحتَ أثقالِ السِنينَ، ولمّا بَلَغَ الكوخَ قادَ العُجُولَ إلى مَعالِفِها[2] وجَلَسَ بسَكينةٍ قربَ النافذةِ يتأمَّلُ اضمِحلالَ نورِ النَهارِ، وبعدَ هُنيهةٍ سَمِعَ والدَه يَهمِسُ في أُذُنِ أُمِّهِ هذه الكلماتِ: «كم عَارضتِني يا سَارة عندَما كنتُ أقولُ لكِ إنَّ ولدَنا مُختَلُّ الشعورِ، والآن أراكِ لا تَعتَرِضِينَ لأنّ أعمالَهُ قد حقّقَتْ كَلامي ورئيسَ الدَيرِ الوَقورَ قد قال لكِ اليومَ ما قلتُه أنا منذُ سنين».

وَظَلّ يُوحَنّا ناظِرًا نحوَ المَغربِ حَيثُ الغُيومُ المُتلبِّدَةُ متلوّنةٌ بأشعَّةِ الشَمسِ.

---

(١) إشارة إلى قولٍ للسيد المسيح.

(٢) معالفها: الأماكن التي يوضع فيها أكل البهائم.

٢

جاءَ عيدُ الفِصحِ وتبدَّلَ الانقطاعُ عن المآكِلِ بالإكثارِ مِنَ المُشتَهيَاتِ، وكانَ قد تَمَّ بِناءُ الهَيكَلِ الجَديدِ المُتعالي بينَ المَساكِنِ في مَدينة بشرّي كصرحٍ[1] أميرٍ قائمٍ بينَ أكواخِ الرعايا. وكانَ القومُ يترقَّبُونَ قُدُومَ أحدِ الأساقفة، لتكريسِه وتَقديس مَذابِحِه، ولمّا شَعَرُوا بدُنُوِّهِ خَرَجُوا صُفُوفًا صُفُوفًا على الطَريق وأدخلُوه المَدينةَ بين تَهليلِ الفِتيانِ وتَسابيحِ الكَهَنةِ وأصواتِ الصُنُوجِ وطَنينِ الأجراسِ والنَواقِيسِ. ولمّا تَرَجَّلَ عَن فَرَسِهِ المُزدانةِ بالسَرْجِ المُزركَشِ واللِجَامِ[2] الفِضِّيِّ، قابَلَهُ الأئِمَّةُ والزُعَماءُ بمُستَطابِ الكَلامِ، مُترحِّبينَ[3] به بالقَصائِدِ والأناشِيدِ المُصدَّرَةِ بالمَديحِ والمُذَيَّلَةِ بالتَبجيلِ[4]. حتّى إذا ما بَلَغَ الهيكلَ الجَديدَ ارتَدَى المَلابِسَ الحَبْريَّةَ[5] المُوشَّاةَ بالذَهَبِ، ولَبِسَ التاجَ المُرصَّعَ بالجَوَاهِرِ، وتَقَلَّدَ عَصَا الرِعَايَةِ المُنَمَّقَةَ بالنُقُوشِ البَدِيعَةِ

(١) صَرْح: قصر.
(٢) السَرج: ج سُرُوج: الرَّحْل، وهو ما يوضع على ظهر البعير أو الخيل وما شابه وغلبَ استعماله للخيل، اللِجام: ما يُجعل في فم الفرس من الحديد مع الحَكَمَتَيْنِ والعِزارَيْنِ والسير.
(٣) المقصود: مُرحِّبِينَ.
(٤) التبجيل: التعظيم، المديح المبالَغ فيه.
(٥) الملابس الحبريَّة: الملابس المناسِبة لرتبته الأسقفية.

والحِجَارَةِ الكَريمَةِ، وطافَ حَولَ الهَيكلِ مُنَغِّمًا مَعَ الكهنةِ الصَلواتِ والتَقَاسِيمَ، وقد تصاعَدَتْ حَولَهُ روائحُ البَخُورِ الطَيّبةِ، وشَعشَعَتِ الشُموعُ الكَثيرةُ.

وكانَ يُوحَنّا في تلكَ السَاعةِ وَاقِفًا بينَ الرُعاةِ والزارِعينَ على رُواقٍ مُرتَفِعٍ يَتأمَّلُ بعينَيهِ الحَزينتَينِ هذا المَشهدَ، ويتنهَّدُ بمَرارَةٍ ويتأوَّهُ بغَصَّاتٍ مُوجِعَةٍ إذ يَرى من الجِهَةِ الوَاحِدَةِ مَلابِسَ حَريريّةً مُطَرّزةً، وأوانيّ ذهبيّةً مُرصَّعَةً، ومَباخِرَ ومَشَاعِلَ فِضِّيَّةً ثَمينةً، ومن الأُخرى جَماعةً من الفُقراءِ والمَسَاكِينِ الذين أَتَوْا مِنَ القُرى والمَزارع الصَغِيرَةِ يُشَاهِدُونَ بَهجَةَ هذا الفِصحِ والاحتِفالَ بتكريسِ الكَنيسةِ. منَ الجِهةِ الوَاحِدَةِ عظمةٌ ترتَدي القَطيفةَ والأطالِسَ[1]، ومن الأُخرى تعاسةٌ تَلتفُّ بالأطمارِ البَاليةِ[2].

ههُنا فئةٌ قويّةٌ غَنيّةٌ تمثِّلُ الدِينَ بالتَنغِيمِ والتَعزِيمِ، وهناكَ شعبٌ ضَعيفٌ مُحتَقَرٌ يفرحُ سِرًّا بقيامَةِ يسوعَ مِن بينِ الأمواتِ ويُصلِّي بسَكينةٍ هامِسًا في مَسَامعِ الأثيرِ تنهيداتٍ حَارّةً صَادرةً من أعماقِ

---

(١) القطيفة: ج قُطُف وقطائف: دِثَارٌ مُخْمَلٌ يلقيه الرجلُ على نفسه؛ الأطالس: ج أطلس: وهو ثوب من حرير منسوج.

(٢) الأطمار: ج طِمر: الثوب البالي.

القُلوبِ الكَسِيرةِ. ههنا رُؤساءُ وزُعماءُ لهُم مِن سُلطتِهم حياةٌ أشبَهُ شيءٍ بأشجارِ السَروِ ذاتِ الاخضِرَارِ الأبديِّ، وهناكَ بُؤساءُ وزَارِعُونَ لهُم من خُضُوعِهم حياةٌ تُشابِهُ سَفينةً، ربّانُها الموتُ وقد كَسَرَتِ الأمواجُ دَفّتَها، ومزَّقَتِ الرِياحُ شِراعَها، فأمسَتْ في هُبُوطٍ وصُعُودٍ، بينَ غَضَبِ اللُجَّةِ وهَولِ العَاصفة. ههُنا الاستبدادُ القَاسي، وهناكَ الخُضُوعُ الأعمَى. فأيُّهما كانَ مَولِدًا للآخر؟ هل الاستبدادُ شجرةٌ قَوّيةٌ لا تَنبُتُ في غيرِ التُربةِ المُنخفضَةِ؟ أم هُو الخُضُوعُ حَقلٌ مهجورٌ لا تَعيشُ فيه غيرُ الأشواكِ؟

بهذه التأمّلاتِ الأليمةِ وهذهِ الأفكارِ المُعذَّبةِ كانَ يُوحَنّا مَشغُولاً وقد بَكّل[1] زَندَيْه على صَدرِه كأنّ حَنْجَرَتَهُ قد ضاقَتْ عن أنفاسِهِ فخَاف أن يتمزَّقَ صَدرُه حَناجِرَ ومَنَافِذَ. حتَّى إذا ما انتهَتْ حفلةُ التكريسِ وهمَّ الشعبُ بالانصرافِ والتفرُّقِ، شَعَرَ بأنّ في الهواءِ رُوحًا تَنتَدِبُهُ واعِظًا عَنها، وفي المَجمُوعِ قوّةٌ تُحرِّكُ روحَه وتُوقِفُهُ خطيبًا أمامَ السَماءِ والأرضِ أَسرَ إرادَتِهِ، فتقدَّمَ إلى طَرَفِ الرُواقِ ورَفَع عَينَيهِ وأشارَ بيدِهِ نحوَ العَلاءِ وبصَوتٍ عَظيمٍ يَستَدعِي المَسَامِعَ ويستَوقِفُ النواظرَ صَرَخ قائلاً:

(١) بكّلَ تعني خلط، والصواب طوّق أو ضمّ.

انظُرْ يا يسوعُ الناصِريُّ الجالسُ في قلبِ دَائرةِ النُورِ الأعلَى. انظُرْ مِن وراءِ القُبّةِ الزَرقاءِ إلى هذهِ الأرضِ التي لَبسَتْ من عناصِرِها رداءً. انظُرْ أيُّها الحَارِسُ الأمينُ، فقَد خَنَقَتْ أشواكُ الوَعْرِ[1] أعناقَ الزُهورِ التي أنعَشْتَ بذورَها بعَرَقِ جَبينِكَ. انظُرْ أيُّها الرَاعي الصَالحُ، فقد نَهَشَتْ مخالبُ الوُحوشِ ضلوعَ الحَمَلِ الضَعيفِ الذي حَمَلْتَه على مَنكِبَيْكَ. انظُرْ فدِماؤُكَ الزكيّةُ قد غارَتْ في بَطنِ الأرضِ، ودُموعُكَ السَخينةُ قد جَفَّتْ في قُلوبِ البَشرِ، وأنفاسُكَ الحَارّةُ قد تَضَعْضَعَتْ أمامَ رياحِ الصَحراءِ، وأصبَحَ هذا الحقلُ الذي قَدَّسَتْهُ قَدَماكَ ساحَةَ قِتالٍ تَسحَقُ فيها حَوافرُ الأقوياءِ ضُلُوعَ المُنطرِحِينَ، وتنتزِعُ أكُفُّ الظَالِمينَ أرواحَ الضُعفَاء...

إنَّ صُراخَ البائِسِينَ المُتَصَاعِدَ من جَوانِبِ هذهِ الظُلمَةِ لا يسمَعُهُ الجَالِسُونَ باسمِك على العُرُوشِ، ونُواحَ المَحزُونِينَ لا تَعِيهِ آذانُ المُتكَلّمِينَ بتَعاليمِكَ فوقَ المَنابرِ. فالخِرافُ التي بعَثْتَها من أجلِ كَلمَةِ الحَياةِ قد انقلبَتْ كواسِرَ تُمَزِّقُ بأنيابِها أجنحَةَ الخِرافِ التي ضَمَمْتَها بذراعَيك، وكلمةُ الحياة التي أنزَلْتَها من صَدرِ الله قد توارَتْ في بُطونِ الكُتُبِ وقامَ مَقامَها ضَجيجٌ مُخيفٌ ترتَعِدُ من هَولِهِ النُفُوسُ.

---

(١) الوعر: القفر. المكان الصلب.

لقد أقامُوا يا يسوعُ لَمجدِ أسمَائِهم كنائسَ ومعَابِدَ كَسَوْهَا بالحَريرِ المَنْسوجِ والذَهبِ المُذَوَّبِ، وتَرَكُوا أجسَادَ مُختَارِيكَ الفُقَراءِ عَاريةً في الأزقّةِ البَارِدَة، ومَلأُوا الفَضَاءَ بدُخَانِ البَخُورِ ولَهيبِ الشُمُوع، وتركُوا بُطُونَ المُؤمنينَ بألوهِيَّتِكَ خاليةً من الخُبز، وأفعَمُوا[1] الهَواءَ بالتَراتيلِ والتَسابيح، فلَم يسمَعُوا نداءَ اليَتَامَى وتنهيداتِ الأرامل.

تعالَ ثانيةً يا يسوعُ الحيُّ واطرُدْ باعَةَ الدِينِ من هيَاكِلِك، فقد جَعَلُوها مَغَاوِرَ تتلوَّى فِيها أفَاعِي رَوغِهم[2] واحتيالِهم. تعالَ وحَاسِبْ هَؤلاءِ القَياصِرةَ[3]، فقَدِ اغتَصَبُوا من الضُعَفَاء ما لَهم وما لله. تعالَ وانظُرِ الكَرمَةَ التي غَرَسَتْها يَمِينُك، فقدَ أكلَتْ جذوعَها الديدانُ، وسحَقَتْ عناقيدَها أقدامُ ابنِ السَبيل[4]. تعالَ وانظرِ الذينَ ائتمنْتَهُم على السَلامِ، فقد انقَسَمُوا على ذَواتِهم وتَخَاصَمُوا وتحَارَبُوا، ولم تَكُن أشلاءُ حُروبِهم غيرَ نفوسِنا المَحزونةِ وقلوبِنا المُضنكَة...

---

(١) أفعموا: ملأُوا.

(٢) روغهم: مَكرهم.

(٣) القياصرة: جمع قيصر، وهو لقب ملوك رومة في القديم، وروسيا في التاريخ الحديث، وقد عمّم جبران مجازًا هذا اللقب على السلاطين.

(٤) كلامٌ مستمَدٌّ مناخُه من آيات انجيلية. انظُرْ آياتٍ في الأفاعي (متى ٣: ٧؛ ١٢: ٣٤: ٢٣: ٣٣)؛ والآية: «بيتي بيت الصلاة يُدعى ..» (متى ٢١: ١٣)؛ والآية: «اعطوا ما لقيصر لقيصر..» (متى ٢٢: ٢١)؛ الآية: «أنا هو كرمة الحق...» (يوحنا ١٥: ٣-١).

فِي أعيَادِهم واحتِفَالاتِهِم يَرفَعُون أصوَاتَهم بجَسَارَةٍ قائلين: المَجدُ لله في العُلَى وعَلى الأرضِ السَلامُ وبالنَّاسِ المَسرّة[1]. فهل يتمجَّدُ أبوكَ السَماوِيُّ بأن تلفظَ اسمَه الشفاهُ الأثيمَةُ والألسِنَةُ الكَاذِبَة؟ وهل عَلَى الأرضِ سَلامٌ وأبناءُ الشَقَاءِ في الحُقُول يَفنُون قُواهُم أمامَ وَجهِ الشَمسِ ليُطعِمُوا فَمَ القَوِيِّ ويَملأُوا جَوفَ الظَالم؟ وهل بالناسِ مسرّةٌ والبؤسَاءُ ينظُرونَ بأعينٍ كَسيرَةٍ إلى المَوتِ نِظرةَ المَغلُوبِ إلى المُنقِذ؟

ما هو السلامُ يا يَسوعُ الحُلو؟ هَل هُو في أعيُنِ الأطفالِ المُتَّكِئِينَ على صُدُورِ الأُمَّهاتِ الجَائِعَاتِ في المَنَازِلِ المُظلِمَةِ البَارِدَة؟ أم في أجسَادِ المُعْوِزِينَ النَائِمِينَ على أسِرَّةٍ حَجَرِيَّةٍ يَتَمَنَّونَ القُوت[2] الذي يَرمِي به قُسُسُ الدَيرِ إلى خَنَازِيرِهم المُسَمَّنَةِ ولا يَحصُلُون عليه؟

ما هِيَ المَسَرَّةُ يا يسوعُ الجَميلُ، أبأن يَشتَرِيَ الأميرُ بفَضَلاتِ الفِضَّةِ قُوى الرجَالِ وشَرَفَ النِساءِ، وبأن نَسكُتَ ونَبقَى عَبيدًا بالنفسِ والجَسَدِ لمَنْ يُدهِشُون أعيُنَنا بلمَعَانِ ذَهَبِ أوسِمَتِهِم وبَريقِ

---

(١) لوقا (١٤:١).

(٢) القُوتَ: من قاتَ يقوتُ الرجُلَ: رزقَه وأعطاه القوتَ وعَالَهُ. والقُوتُ: ج أقوات: ما يأكله الإنسانُ ويقتاتُ به.

حِجَارَتِهم وأطالِسِ[1] مَلابِسِهم؟ أَم بأن نَصرُخَ مُتَظلّمِينَ مُنَدِّدِينَ فيَبعَثُوا إلينَا بأتبَاعِهم حَامِلِينَ عَلَينا بسُيُوفِهم وسَنَابِكِ[2] خُيولِهم فتنسحقُ أجسادُ نسَائِنا وصغارِنا وتَسْكَرُ الأرضُ من مَجَاري دِمَائِنا؟...

امدُدْ يدَكَ يا يسوعُ القويُّ وارحَمْنا لأنَّ يَدَ الظَلوم قَويّةٌ علَينا، أو أرسِلِ المَوتَ ليَقُودَنا إلى القُبُورِ حيثُ ننامُ براحَةٍ مَخفُورِينَ بِظِلِّ صَليبِكَ إلى سَاعَةِ مجيئِكَ الثاني، لأنَّ الحياةَ ليسَتْ حَيَاةً عِندَنا، بل هِي ظُلمةٌ تتسَابَقُ فيها الأشباحُ الشِرِّيرَة، ووادٍ تَدُبُّ في جَوانِبِه الثَعابِينُ المُخِيفة. ولا الأيّامُ أيّامٌ عندَنا، بل هيَ أسيافٌ سَنينةٌ يُخفِيها اللَيلُ بين لُحُفِ مَضَاجِعِنَا ويُشهِرُهَا الصَبَاحُ فوقَ رُؤوسِنا عندَما تقودُنا محبّةُ البَقاءِ إلى الحُقُول. ترأَّفْ يا يسوعُ بهذِه الجُمُوع المُنْضَمَّةِ باسمِكَ في يَومِ قيامَتِكَ من بينِ الأمواتِ وَارْحَمْ ذُلّهُم وضُعْفَهُم».

كان يُوحَنّا يُناجِي السَماءَ والشَعبُ حَولَه بينَ مُستَحسنٍ رَاضٍ ومُستَقبِحٍ غَاضِب. فهذا يصرُخُ: لم يَقُلْ غيرَ الحَقِّ فهو يتكلَّمُ عَنّا أمامَ السَماءِ لأنّنا مَظلُومُون. وذا يقولُ: هو مَسكونٌ يتكلّمُ بلسَان رُوحٍ

(١) أطالس: جمع طيلس. وهو في الأصل كساءٌ أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء.

(٢) سنابك: ج سُنبُك: (كلمة فارسية) طرف حافِر الفرس.

شِرِّيرةٍ. وذاكَ يقـولُ[1]: لم نـسمَعْ قَـطُّ مثلَ هـذا الهَـذَيانِ[2] مـن آبائِنـا وجُـدودِنا ولا نريـدُ أن نـسمَعَه الآنَ. وآخـرُ يَهمِـسُ في أُذُنِ قَريبِـهِ: أحسَسْتُ بقُشَعْريرَةٍ[3] سِـحريّةٍ تَهُزُّ قَلبـي في دَاخِـلي عنـدَما سـمعتُ صَوتَه، فهو يَتكلَّمُ بقُوةٍ غَريبةٍ. وغـيرُه يُجيـب: نَعَـمْ ولكـنَّ الرؤسـاءَ أعرَفُ مِنّا باحتاجَاتِنا فمِنَ الخَطإِ أنْ نَشُكَّ بِهِم.

وبينَما هذه الأصواتُ تَتَـصَاعَدُ مـن كُـلِّ ناحيـةٍ وتَتَـآلفُ كهَـدِيرِ الأمواجِ ثُمَّ تَضِيعُ في الهَوَاءِ، جـاءَ أحـدُ الكَهَنـةِ وقَـبَضَ عـلى يُوحَنّـا وأسلَمَهُ للشُرطَةِ فقَادُوه إلى دَارِ الحَاكِم. ولَمَّا استَنْطَقُوه لم يُجِبْ بكَلِمَـةٍ لأنّه تَذَكَّر أن يسوعَ كانَ سَكُوتًا أمامَ مُضْطَهِدِيهِ، فأنزلزَلُوه إلى سِـجنٍ مُظلمٍ حيثُ نامَ بسَكينةٍ مُتَّكِئًا على الحائِطِ الحَجَرِيّ.

وفي صَباحِ النَهارِ التَـالي جَـاءَ والـدُ يُوحَنّـا وشَـهِدَ أمـامَ الحَـاكِم بجُنُونِ وَحِيـدِه قـائلاً: «طالَمَـا سَـمِعتُه يَهـذي في وَحدَتِـه يـا سَـيِّدي، ويَتكَلَّمُ عن أشـياءَ غَريبـةٍ لا حَقيقـةَ لهـا، فكَـمْ سَـهِرَ الليـالي مُنَاجِيًـا السُكونَ بألفاظٍ مَجهُولة، مُنادِيًا أخليةَ الظُلمةِ بأصـوَاتٍ مُخيفـةٍ تُقـارِنُ تَعازيمَ العَرَّافِينَ المُشعْوذِينَ. سَلْ فِتيانَ الحَيِّ، يا سيّدي، فقد جالـسُوه

---

(١) الأفضل: هذا وذاك وذلك.

(٢) الهذيان: من هَذَى يهذي: تكلّمَ بغير معقولٍ لمرضٍ أو لغيره، فهو هاذٍ، والكلام غيرُ المعقول هو الهذيان.

(٣) القُشَعْرِيرَة: الاسم من اقشعَرَّ. واقشعَرَّ جلدُه: ارتعد، تقبَّض، تخشَّن، تغيَّر لونـه، فهـو مُقـشَعِرٌّ، والجمع مُقشَعِرُّون وقَشَاعِر.

وعَرَفُوا انجذابَ عَاقِلَتِهِ إلى عَالَمٍ بَعيدٍ، فكانوا يُخاطِبُونَه فلا يُجيبُ، وإنْ تَكَلَّمَ جَاءَتْ أقوالُه مُلتَبِسَةً[1] لا علاقةَ لها بأحَادِيثِهِم. سَلْ أُمَّه فهي أدرَى النّاسِ بانسِلاخِ نفسِه عن المَدارِكِ الحِسِّيَّةِ، فقَدْ شاهدَتْه مرّاتٍ ناظِرًا إلى الأُفقِ بعينَينِ زُجاجِيَّتَيْنِ وسَمِعَتْهُ مُتكلِّمًا بشَغَفٍ[2] عن الأشجارِ والجَدوالِ والزُهُورِ والنُجُوم، مثلَما تتكلّمُ الأطفالُ عن صَغَائِرِ الأُمورِ. سَلْ رُهبانَ الديرِ فَقَدْ خاصَمَهُم بالأمسِ مُحتَقِرًا تنسُّكَهم وتَعبُّدَهم، كافِرًا بقَدَاسَةِ معَيشَتِهِم. وهو مجنونٌ يا سَيّدي، ولكنَّه شَفُوقٌ عليَّ وعلى أُمِّه، فهو يَعُولُنا[3] في أيّامِ الشَيخوخَةِ ويَذرِفُ عَرَقَ جَبينِهِ من أجلِ الحُصُول على حَاجَتِنا، فتَرَأَّفْ بِهِ برأفتِكَ بنا، واغتَفِرْ جنونَهُ باعتبارِكَ حنوَّ الوالدَيْن».

أُفرجَ عن يُوحَنّا، وشاعَ في تلكَ النَوَاحِي جنونُه، فكانَ الفِتيانُ يذكرُونَه سَاخِرينَ بأقوالِهِ، والصَبايَا ينظُرْنَ إليه بأعيُنٍ آسِفةٍ قائِلاتٍ: للسَماءِ شؤونٌ غَريبَةٌ في الإنسانِ، فهيَ قد جَمَعَتْ في هذا الفَتى بين جَمَالِ الوَجهِ واختِلالِ الشُعُور، وقارَنَتْ بين أشعَّةِ عينَيه اللطيفةِ وظُلمَةِ نفَسِه المَرِيضَةِ.

***

---

(١) ملتبسة: مُشكِلة، مختلطة.

(٢) بشغفٍ: بوَلَهٍ.

(٣) يعولنا: من عال يعول: وفَّر أسبابَ العيش.

بينَ تلكَ المُـروجِ والـرَوَابي المُوشَّـاةِ بالأعـشَابِ والزُهُـور، كـان يُوحَنّا يَجلِسُ بقُربِ عُجُولِـهِ المُنـصَرِفَةِ عـن مَتَاعِـبِ ابـنِ آدَمَ بطِيـبِ المَرعَي، وينظرُ بعَينَينِ دامِعَتَيْن نَحوَ القُرى والمَزارعِ المُنتَشِرَةِ عَـلى كَتِفَـي الوَادي مُرَدِّدًا هذهِ الكَلِمَاتِ بتَنهيداتٍ عَمِيقَةٍ: أنتُم كثارٌ وأنا وَحـدي، فقُولُوا عَنّي ما شِئتُم، وافعَلُوا بي ما أرَدْتم، فالذئابُ تفـترسُ النَعجـةَ في ظُلمة الليلِ، ولكنَّ آثارَ دِمائِها تَبقـيَ عـلى حَـصبَاءِ الـوَادي حتَّـى يجيءَ الفجرُ وتطلعَ الشمسُ.

***

# أسئلة

١) كيف أشار جبران إلى وحدة الوجود؟ أعطِ أمثلة؟

٢) ماذا قصد المؤلف برماد الأجيال والنار الخالدة؟ وما علاقة هذا العنوان بالتقمص؟

٣) ما الفرق بين الأزل والأبد؟

٤) ماذا أراد جبران بقوله: الفاصلة بيني وبيني؟

٥) اشرح: ما هي الفوارق بين الذات المقتبسة والذات المعنوية في هذه العبارة: «نسي ذاته المقتبسة والتقى ذاته المعنويّة»؟

٦) كيف عبّر المؤلف عن الحبّ الحقيقيّ في «مَرتا البانية»؟

٧) تأثر جبران بأسلوب الإنجيل. أعطِ أمثلة؟

٨) اشتهر جبران بصوره الرمزية. اشرح بعض هذه الصور؟

٩) قال جبران: «إن الحبّ سبيل الاتحاد»، كيف تفسّر هذا القول؟

١٠) إلامَ يرمز جبران بالنعجة، والذئب، والشمس في نهاية «يوحنا المجنون»؟

١١) في هذا الكتاب تمجيد للطبيعة قارن بين التمجيد هنا والتمجيد

في «المواكب».

١٢) اذكر أمثلة على ركاكة أسلوب جبران في التعبير المعقَّد؟

١٣) «نظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع» هل ترى أن هذه العبارة سليمة؟ وكيف تعيد كتابتها إن لم تكن صحيحة لغويًا؟

١٤) ما علاقة عنوان «عرائس المروج» بموضوعات الأقاصيص؟

١٥) ما هي النعوت التي تضعف طاقة الكلمة التعبيرية؟ أعطِ بعض الأمثلة.

١٦) امتاز جبران بأنسنة الأشياء. أين ظهرت هذه الأنسنة وكيف؟

١٧) قيل: إن جبران يرسم في كتاباته بقدر ما يرسم في لوحاته فهل هذا صحيح؟ أيّد رأيك بالبرهان.

١٨) هل ثمة علاقة بين يوحنا المجنون وخليل الكافر في «الأرواح المتمردة»؟

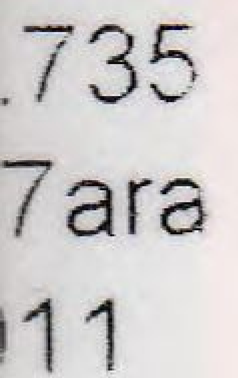
# فهرس الكتاب

WWW.ALMMARFA.COM

| ٥ | ٤ | ٣ | ١ |
|---|---|---|---|
| دمعة وابتسامة | الأجنحة المتكسرة | الأرواح المتمردة | رمل وزبد & الموسيقى |

| ٩ | ٨ | ٧ | ٦ |
|---|---|---|---|
| السابق | البدائع والطرائف | العواصف | المواكب & المجنون |

| ١٣ | ١٢ | ١١ | ١٠ |
|---|---|---|---|
| مختارات من رسائل جبران | التائه | آلهة الأرض | النبي |





دار العلم و المعرفة
٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حـ
زهراء مدينة نصر - القاهـ
ت : ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٣٣١٢٣٨
il : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com
عبلين - الجليل - فلسطـ
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٧٢
(٧٢) ٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٧٢



عرائس المروج - جبران خليل جبران
104:001
6 222010 912959